

حاملة الطائرات «آركرويل» تفرغها ٢٢ ألف طن (٢٧٠٠٠ عند ما يكون حملا كاملاً) طولها ٨٠٠ قدم، قوة محركها ١٠٢ ألف حصان
سرعتها ٣٠.٧٥ عقدة، تحمل ستين طائرة

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السابع والتسعين

١ ديسمبر سنة ١٩٤٠

٢ ذي القعدة سنة ١٣٥٩

لماذا نحارب ؟

بحث نفسي مقابلي

في بواعث القتال والاعتداء في طبيعة البشر

ليس الغرض من هذا البحث تبيان البواعث التي حملت هذه الدولة أو تلك على خوض غمار هذه الحرب الطاحنة. ولكن الغرض منه الرجوع بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي من وراء الحروب الى أصولها في طبائع الناس. وأغلب الرأي في ما يلي لفريق من علماء النفس المجرّبين في الولايات المتحدة الأمريكية

يستدل بمشاهدة القردة والأطفال وتجربة التجارب بهم ان هناك بضعة عوامل أساسية بسيطة تبعث على القتال واعتداء الأفراد بعضهم على بعض
وأحد هذه العوامل هو النزاع على امتلاك الأشياء المادية. كالنزاع على الطعام أو الملابس أو اللعيب أو الاناث

وما هو جديرٌ بالنظر في بحث هذا النزاع على المثلك ان المتنازعين قد يمضون في النزاع الى أقصى درجات العنف فلا تسلم الاشياء التي يتنازعون في سبيلها من التلف أو الدمار. فاللعبة تمزّق قطعاً قطعاً. والاثني تقطع شلواً شلواً. حتى امكن الاعتداء نفسه يملك النفس والجسم بعد ابتدائه فيعدو جميع حدود الأثرة المعقولة الدافعة إلى امتلاك شيء بعينه الى تدميره

ثم لوحظ في الاطفال خاصة ان الشيء الذي يكون موضوع النزاع بغية امتلاكه قد يكون في بدء النزاع او قبيله مرموقاً من طفل واحد لا غير . فاذا تجلّت هذه الرغبة فيه تعدّته الى غيره فيبدأ النزاع على شيء لم يكن مرغوباً فيه من أحد الفريقين المتنازعين ، ولكن رغبة الفريق الآخر أيقظت شعور المنافسة على امتلاكه فكان النزاع

ولاحظ احد الباحثين السيكولوجيين بأمر عينه حوادث نزاع كثيرة كان الباعث عليها لعباً بذت من أحد الأطفال فلما بدت رغبة آخر فيها حلت في عينيه او عيني غيره وغدت سبب نزاع بين الفريقين . واذن فرغبة التملك قد تكون غير قائمة على مجرد العقل ومعرفة قيمة الشيء الذي يراد امتلاكه ومن بواعث الاعتداء ميل القرود والأطفال الى السخبط على اندساس غريب في جماعتهم . فالطالب الجديد في فصل من الفصول قلما ينجو من القطيعة وبعض السخرية في ايامه الأولى . والقرود الدخيل على جماعة قلما ينجو من وخز وعصّ قد يفضيان به الى الموت احياناً والغالب ان هذا السخبط مردّه الى الغيرة وهي ترتد الى خوف المنافسة . ودليل ذلك في علم النفس التجريبي المقابل ان الأطفال لا يسخطون اذا دخل على جماعتهم كلباً وإنما يسخطون اذا دخل على جماعتهم طفل غريب . والقرود لا تستثار اذا دخل على جماعتها جرد او ماعز ولكنها تسخط اذا دخل على جماعتها قرد من نوعها

وأخيراً هناك سبب أساسي بسيط يبعث الأطفال على القتال وهو الشعور بالحياة او ما يواجهونه من عقبات تصدّ فيض نشاطهم . فقد يمنع الطفل من ركوب عجلة قصد التنزه إما لا سباب طبيعية كالمرض او عدم ملائمة الجو وإما لمعارضة من هم اكبر منه ولهم سلطان عليه . وقد يشتد شعور الطفل بالحياة لمجزئه عن القيام بالعمل الذي يتوق اليه إما لاعتلال صحته وإما لضعف ذكائه . ان طفلاً من هذا القبيل يغضب ويتنكد ثم بنفس غضبه وتنكده بالاعتداء على غيره . واذا ابتدأ القتال بين القرود فانه ينتشر انتشاراً سريعاً في الجماعة ، ويجذب الى دردوره افراداً لم يكن لهم صلة او شأن بالاعتداء الأول ، ولا مصلحة لهم في استمرار هذا القتال . فكان القتال مرض معد تنتشر عدواه بسرعة عظيمة

فما السر في ذلك ؟

ليس من السهل تحقيق السبب

اذا حاولنا ان نتبين فرقاً بين تصرف القرود والأطفال من ناحية ، وتصرف الكبار من ناحية أخرى ، في حالة الاعتداء والقتال ، فانا قلما نجد فرقاً يذكر . واذا كان هناك فرق ما ، فكفة الاشتداد في العدوان هي كفة الكبار . وتاريخ اوربا الحديث يؤيد هذه النتيجة تأييداً يبعث الهمع في النفوس . فالتعذيب أصبح امراً مألوفاً مرة أخرى في حياة الناس . وأساليب

التعذيب وأدواته الحديثة أفعل وأدق وأوجع من أساليبه وأدواته في عصور الظلام . ثم إن طرق التعذيب الفكرية أصبحت من الوسائل المألوفة في السجون والمعتقلات . وليس بين الحيوانات حيوان يستطيع أن يباري الناس في عنف عدوانه وإيصاد كل باب للشفقة والرحمة دون عذاب المعتقلين والمهم

وعندما ندقق في البحث نجد فرقين اثنين بين الاعتداء كما تمارسه الحيوانات والأقوام التي لا تزال على الفطرة ، والاعتداء كما يمارسه الكبار والجماعات المتحضرة في عصرنا . فالثاني يكون على العموم عمل الجماعة سواء أحرزاً سياسياً كانت الجماعة أم طبقة دينية أو اقتصادية أم دولة ذات سيادة . بينما الأول يكون فردياً على الغالب

والفرق الثاني أن قدرة الكبار على التخيل والتفكير توجههم الى تأييد نية الاعتداء فتبتكر الأساليب وتقن وتوضع النظريات الفلسفية والتاريخية وتؤيد . فالقردة والأطفال عندما يقاثلون لا يتعدون القتال الى تسويقه أو تفسير البواعث عليه . ولكن الكبار منتظمين في جماعات — سواء أأحرزاً كانت أم دولا — ينشئون فلسفات ويشيدون علالي من المثل العليا قبل الشروع في قتل بعضهم يمضاً . فجماعة تقاتل في سبيل المذهب البروتستانتي وأخرى لتحرير طبقة العمال أو لملء الثقافة النوردية على الناس ونشرها في العالم . إن الكبار يموتون في سبيل نظرياتهم

ومن أسباب الحرب ما يتجلى في بحث النزاع بين الطوائف البدائية التي لا تزال على الفطرة . ففي هذه الطوائف يتجلى ميل الى اسناد الحوادث — سواء أطييعية كانت ولا مفر منها ، أم انسانية تقع بالاختيار — الى مشيئة شخص انساني أو آلهي . فاذا عصفت عاصفة أو زلزل زلزال أو افترس ببر رجلاً ، فالحدث يسند اما الى سحر تمارسه قبيلة مجاورة وإما الى غضب الشياطين او سخط الآلهة . وكذلك يسند حسن الحال الى شخص من هذا القبيل

هذه النزعة التخيلية في الانسان تفضي الى الحرب . فالسذج في جميع الشعوب يميلون الى اسناد الشر الى شخص أو جماعة . وهذا مبدأ لا يستطيع أحد ممن يمارس السياسة ان يجبهه أو يتجاهله . فالسياسي يحاول ان يُصبَّ جام شرٍّ ما على خصمه السياسي . وكذلك ترى حركات اجتماعية تتخذ من أصحاب البنوك شخصاً معنوياً تصب عليه جام الغضب بعد أن تسند اليه الشر الذي يعانيه الناس . وأخرى تتخذ من « اليهود » أو « الشيوعيين » ذلك الشخص المعنوي . وبعد ذلك يوصف بالخبث والخطر وما شا كل ثم يصبح هدفاً للاعتداء مفرغاً في قوالب شتى واذن فنزعة التملك ، والتمرد على الخلية والصدق ، والميل الى اسناد الشر الى شخص أو

جماعة ، هي الأسباب الرئيسية للنزاع بين الجماعات ، سواء أأحزاباً كانت أم طبقات أم دولاً . ان السواد الأكبر من الأطفال محروم الوسائل اللازمة لاشباع ميولهم . والادلة متوافرة على ان هذا المنع او القدح يفضي الى انفعال عنيف أساسه الخوف فالمقت ونتاجته الاعتداء . فالسخط والاعتداء اللذان يليان الخوف نطلق عليهما الاعتداء البسيط والطريقة المألوفة في معالجة الاعتداء البسيط تفضي الى حرمان آخر . فيصنع الطفل او بعنف فتكون نتيجة العقاب ان يقوم في نفس الطفل نزاع بين الميل الى الاعتداء والخوف من العقاب

وهذا النزاع في الطفل مصدر من أهم مصادر الاعتداء في البالغ . فالنزاع نفسه نزاع بين ميل أصيل — وهو السخط من المنع او القدح — وبين الخوف من العقاب او الخوف من فقد حب من يحب . وكلاهما أصيل كذلك . فالوالد او الوالدة في نظر الطفل مصدر للرضى والسخط في آن واحد . ولذلك يميل الفرد في كثير من الأحيان الى حل النزاع بكتبته اي اخفائه . ولكن مهما يتغمر النزاع في النفس ويتخفى باستار فوقها استار لا يزول مطلقاً ولا بد أن يظهر مفرغاً في قوالب شتى . فالطفل الذي لا يستطيع ان يصفع ابيه لأنه أكبر منه وأقوى ويخشى عقابه ، يصفع طفلاً مثله أو أصغر منه لأنه لا يخشاه . فزعة الاعتداء الخفية في نفس الطفل تحول الطفل الى « بلطجي » صغير

وعلى النمط نفسه نجد الثوار والفوضويين الذين يحملون على الحكومات المنظمة ، وكذلك الغلاة في الوطنية الذين يمتنون الشعوب الأجنبية ، ومتطري النظريات الاجتماعية الساخطين على أصحاب البنوك ، او خصومهم السياسيين ، ينشرون في كهولتهم آثار نزاع نشأ فيهم صغراً عن ميل الى الاعتداء البسيط ككتبته صفع الوالد او تعنيفه ، فغار في النفس الى ان حانت له فرصة الظهور

في كثير من حالاتنا النفسية التي نشيرنا او تفلقنا نعلم الى أحد أسلوبين للتخلص من القلق والنزاع الداخلي الذي يساورنا ، أما الأول فهو أسلوب التحويل ، وهو شائع الممارسة في الحياة السياسية . ومؤداه أننا ننقل خوفنا او بغضنا او محبتنا من الشخص الأصيل الذي نخافه او نبغضه او نحبّه الى شخص آخر . وقد يكون الشخص الآخر ممن نخاف أو نبغض أو نحب لذاته . ولكن اذا حوّلنا خوفنا أو بغضنا أو محبتنا من آخر اليه ، أصبح الشهور الذي ربطنا به عنيقاً ملتصقاً . فالخوف شديد يكاد يكون ذعراً . والبغض شديد يقرب من ان يكون كرهاً . والمحبة شديدة تبلغ مرتبة الهيام

وقد لا يقتصر هذا التحويل على تحويل الشعور الذي يتملكنا من شخص الى شخص بل قد يكون تحويلاً من أشخاص الى هيئات او جماعات كالدولة أو الأحزاب السياسية فيها . وهذا التحويل يكاد يكون عاماً . ولذلك قلما نخلو الحياة السياسية من النزاعات العنيفة والتحويل يكون عادة الى شخص أقل خطراً من الشخص المحوّل عنه . فالطفل الذي يحوّل غضبه من والده لأنه يخشاه ، يحوله الى طفل مثله أو أصغر منه لأنه لا يخشاه . والرجل أسهل عليه أن يمقت النظام الرأسمالي من أن يمقت زوجته ، وأسلم عاقبة له أن يندد بالشيوعيين من أن يندد بالشركة التي يعمل فيها . وهذه الطريقة ، طريقة التحويل يقل الخوف والقلق ولكنهما لا يزولان ، وبذلك تزداد سعادة المرء زيادة متفاوتة

فاذا نقلنا هذا القول من ميدان حياة الفرد الى ميدان حياة الجماعة يبتنا أصلاً من أصول الاعتداء الدولي . فالاعتداء في الكبار يكون على الغالب ناحية من نشاط الجماعة . وبعض الجماعات له القدرة على ان يجذب اليه ولاء الاعضاء فيوجه سخطهم وحقدهم واقدامهم على القتل ، توجيهاً خاصاً بأسلوب التحويل هذا . فجماعة الوطنيين الاشتراكيين وجهت سخط اعضائها وحقدهم الى اليهود والشيوعيين . أما السخط على الأول فلم ينقص وأما السخط على الشيوعيين فتقتضي الأحوال السياسية كتمانها وكونه الآن

ثم هناك أسلوب آخر لا بد من تقصيه لفهم طبيعة الفرد والجماعة . وهذا الأسلوب مردّه الى التخيل كذلك . ولكنه تخيل من نوع آخر . وبه تتخيل الناس متصفين بصفات نأبى ان نعرف بوجودها في طبيعتنا

فالنفس بحسب رأي علم النفس الحديث ، ولا سيما مدرسة فرويد وما تفرّع عليها ، ثلاثة أجزاء ، الجزء الغائص المغمور بالظلام وفيه الرغبات والفرائز الأصلية ، والذات وهي التي تعيش بها في هذه الدنيا ، والذات العليا التي تعمل عمل الرقيب أو الضمير المحاسب ونحن كثيراً ما نحسب الناس أشراً بفعل بواعث مسيطرة على طبيعتهم من ذلك الجزء السفلي . ولكننا في الوقت نفسه نأبى أن نعرف أن هذه البواعث لها وجود في كياننا الخفي أو أنها تؤثر في ذاتنا . ومن ناحية أخرى نحسب أن ذاتهم العليا تدقق وتحاسب على وجه لا تتبعه ذاتنا العليا في محاسبتنا

ومن الأمثلة التي تضرب على النوع الأول من التخيل أننا كثيراً ما نجد من هو دسّاس بطبعه الخفي يعتقد ان جميع الناس يحكيون له المؤامرات ويدسون الدسائس . أو من هو خسيس شحيح في عقله الباطن ، ثم يقضي الحياة زاعماً ان جميع الناس أخساء أشقاء ومن الواضح في هذه الأمثلة ان الفرد يزعم ان الناس سيعاملونه كما هو يريد أن يعاملهم

أو أنهم يسيرون ببواعث وقوى، هي في الحقيقة البواعث والقوى التي تحركه وتسيره. فالشجيع الحسيس يسند الى الغير باعثة الخفي الى الحسة والاختلاس ومعظم حوادث الاضطهاد السياسي من هذا النوع. وان اختلاف مظهرها. الا ان وجود هذا الميل لا يفسر لماذا يستمر الاضطهاد عند ما لا يكون المضطهد يخشى خطراً أو أذى. ومع ذلك يستمر

وجميع نظم الحكم القائمة على مبدأ الزمامة والطغيان تتخذ هدفاً تركيز من حوله الميل الى الاضطهاد. وقد يكون الاضطهاد مطلوباً لأسباب موضوعية، كوجوب اتخاذ فرد أو جماعة مسنداً يسند إليه أو إليها الاخفاق أو الخيبة، أو للتوسل بها لهدم الخصوم والمنافسين. ولكن علاوة على هذا هناك في الاضطهاد عنصر من عناصر هذا النوع من التخيل، هناك اسناد الى الغير ما نخبه أو نتجاهله من بواعثنا الخاصة الخفية

فالأقليات المضطهدة هي الأشخاص المعنوية التي تسند إليها شرور الطبقات السائدة. وفائدة هذا الأسلوب واضح. إنه يخفف قلق النفس الخفي، لأنه أسهل أن تحتقر الناس لحسة تسندها اليهم أو لسوء ظنهم وريبتهم بالناس من ان تمتقت نفسك وتحتقرها لحسة أو ريبة فيك. فبذلك يتملص المرء من عبء الشعور بالاثم

وقد تقوم ذات المرء العليا، أو رقيته النفسية، أو ضميره، بتوجيه النقد الى ما يعمل والحكم عليه حكماً قاسياً، ولكن هذا لا يرضيه لأنه يحمل عبئاً نفسياً فادحاً. فلكي يتملص من هذا النقد، وذلك الحكم، يحوّل نقده وحكمه الى غيره من الناس. وهذا يفضي بدوره الى حالة شاذة اذ يبدأ المرء المطبوع على هذا الفرار يرمي بالأحكام الأدبية والقانونية — وكثير منها يكون متخيلاً لا وجود له في الواقع — التي تفرضها الدولة عليه فينقلب فوضوياً

واذن فالاعتداء البسيط في طبيعة البشر مردّه الى غريزة التملك، والنفور من الطارئ الغريب عن الجماعة، والخبية أو الفشل. والفرق بين الصغار والقرودة من ناحية والكبار من ناحية أخرى ليس فرق أصل ولكنّه فرق أسلوب في معالجة الحالات المختلفة

ان النظام الذي يكبت الاعتداء لا يزيله ولكنّه يدفعه الى الغور في طوايا النفس فيظهر مفرغاً في قالب آخر. وهذا التحوّل له الأسلوبان اللذان وصفناهما الأول أسلوب التحويل والثاني أسلوب الاسناد. وغرضهما تخفيف الجزع الداخلي الناشئ في النفس عن نزاع بين الاخفاء والتنفيذ، أو الطي والنشر. وهذا يفضي الى ظهور الاعتداء في أشكال تتجلى في اعتداء الكبار، ولا سيما اعتداء الجماعات، في النزاع الحزبي، والحروب الأهلية، وحروب الدين، والحروب الدولية بوجه عام

ففي هذه الحالات يتخذ الاعتداء شكلاً اجتماعياً . ورغبة من الجماعة في تسوية اعتدائها أمام العالم الخارجي وأمام أفراد الجماعة نفسها ، بغية حمل الجميع على قبول الاعتداء والتسليم به من الناحية الأدبية ، يعمد أعضاء الجماعة أو فريق منهم الى انشاء المذاهب والنظريات ، كمذاهب التاريخ ونظريات السلالة والعنصر والدين وغيرها

أي أنهم يتخذون الدوافع الفطرية ، ويننون حولها هيكلاً يشيده العقل لكي تظهر الدوافع معقولة لها ما يسوغها . ومن غرائب الطبع البشري أنك تجد شيئاً من الصحة في كل نظرية او مذهب من هذه النظريات والمذاهب ولكن معظمها فاسد خاطيء ، لا يعدو كونه تسويقاً لما يأكل النفس من مقت ، ودفاعاً عما تجري به الأيدي من عنف وقساوة

إن الأمم تحارب في سبيل التملك ، او في سبيل البغض الناشئ عن اسناد الضرر اللاحق بها الى أمة أخرى او طبقة أخرى من الناس ، او لشعورها بالحقية والفشل وتصدي الخلق لها لمنعها عن تحقيق ما تريد

والموافقة المتبادلة بين أفراد الأمة على عمل ما يحذف فعل الضمير او الرقيب من تقديرها ، ولذلك ترى الدول تنحارب لنفس الأسباب التي تنحارب الاطفال من أجلها وقد يكون أبناء الدولة على جانب من العلم ، ولكنهم يبلغون مرتبة من الشعور بالحقية ، والاحساس بشقاء النفس ، حتى يصعب عليهم ان يتحملوا عبء هذا النزاع النفسي الداخلي في صدورهم . فأمم من هذا القبيل ، او أمم فيها طبقات متحركة متصفة بهذه الصفات ، هي في المعنى الأصيل من الاعتداء ، أمة معتدية .

ذلك بأنها تكون قد بلغت درجة من النزاع النفسي لا قرار لها معها ولا اطمئنان ، فتعدو الحرب ضرورة نفسية لها لا مفر منها . وفي هذه الحالة تشب الحرب لغير سبب معقول او عذر واضح . قد تتوسل الحكومة بمحادثة تافهة ولكن السبب الحقيقي ، ولكن الدافع الأصيل ، الى الحرب هو في داخل النفوس المعذبة ، نفوس الأمة المعتدية

هذه هي إذن أسباب الحرب الدولية مستخلصة من طبيعة البشر ، فالحرب تقع لأن القتال ميل أساسي في الناس ، ولأن القتال ضرب من السلوك يحفز اليه الأطفال والقرود وجماعات البشر والأمم ، قيام أحوال معينة منها الرغبة في الحياة ، او الحقبة عن تحقيق رغبة ، او الخوف من منافسة الأغراب ، او تحويل البغض السكامن في النفس من شخص او جماعة الى شخص آخر او جماعة ثانية . كل واحد من هذه الأسباب يحفز الى الاعتداء ، وليس في الوسع ، بحسب ما نعلم حتى الآن ان تقدم أحداً منها على الآخر من حيث تأثيره . ان ذلك رهن بحال الاجتماع

عالمان المانيان وثالث يوغسلافي بنالان

جائزتي نوبل

في الكيمياء عن سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩

أذاعت أكاديمية العلوم الاسوحيية في استوكهلم من أشهر انها منحت جائزة نوبل الكيمائية عن سنة ١٩٣٨ للدكتور رتشر دكون Kuhn الاستاذ بجامعة هيدلبرج وأنها منحت الاستاذين بوبينانت Butenandt الالماني والاستاذ روزيكا اليوغوسلافي الأصل الجائزة نفسها عن سنة ١٩٣٩. ولا يحط من الشرف الذي أحرزه العالمان الالمانيان بمنحهما هاتين الجائزتين ، أنهما لا يستطيعان قبولها لأن الحكومة الالمانية قرّرت سنة ١٩٣٥ منع الالمانيين من قبول هذه الجوائز وذلك على أن تمنح جائزة السلام للكاتب اوسيتسكي وهو معتقل في المانيا ولد الاستاذ كون في فيينا في شهر ديسمبر سنة ١٩٠٠ وتلقى العلم على العلامة فلستاتر Willstatter وعين مدرّساً في جامعة ميونخ سنة ١٩٢٥ ثم ذهب في السنة التالية الى جامعة زيوريخ وفي سنة ١٩٣٠ عين مديراً لقسم الكيمياء في معهد القيصر فلهم للبحث الطبي في جامعة هيدلبرج فمديراً له في سنة ١٩٣٧

أهم مباحث الاستاذ كون في الكيمياء العضوية والفسولوجية. اما الكيمياء العضوية فقد خص بها مباحثه الأولى اذ توفر على بحث سلاسل الايدروكربونات التي لم تشبع فلم يستقر بناؤها. وهذا قاده طبعاً الى بحث الكاروبينات فأسفر بحثه في هذه الناحية عن اضافة حقائق أساسية الى ما يعرف عن تركيب فيتامين (١)

وفي الوقت الذي أذاع كارر Karrer نتائج بحثه في الريبوفلائين (اي فيتامين ب٢) اذاع «كون» مثل هذه النتائج بعد ما توصل اليها في بحث مستقل. ثم يسن الصلة بين الريبوفلائين والازيم الأصفر الذي كشفه فربرج Warburg وأثبت أنه يشترك في احتراق السكر في خلايا الجسم. وفي أحدث رسائله المنشورة تناول الخواص الكيمائية والحوية التي تتصف بها بعض المواد في الحيوانات الدنيا

أما الأستاذ روزيكا فولد في سبتمبر سنة ١٨٨٧ في بلدة فوكوفار يوغسلافيا وتلقى العلوم الهندسية العالية ثم عين مدرّساً في جامعة زيوريخ سنة ١٩١٨ واذا إستندينا ثلاث سنوات قضاها

استاذاً في جامعة اوترخت فان حياته العلمية قصرت على جامعة زيورخ وهو الآن استاذ الكيمياء فيها. واشتهر روزيكا أولاً بتركيبه طيب المسك تركيباً كيميائياً وهو من الطيوب التي تشتد الحاجة اليها في صناعة العطور . وفضله العظيم في تركيب طيب المسك بالكيمياء مردّه الى انه أثبت وجود طبقة جديدة من المركبات الكيميائية كما أنقذ ثيران المسك من الانقراض في بلاد التبت وبوتانات أصغر الثلاثة سناً فقد ولد في مارس سنة ١٩٠٣ في فيسرموند في المانيا وتلقى العلم في جامعة ماربورج وفاز بدرجة الدكتوراه من جامعة غوتنجن ثم عين للتدريس فيها تحت اشراف الاستاذ قندوس Windaus وبقي فيها الى سنة ١٩٣٣ ثم عين استاذاً في جامعة داترج. وفي سنة ١٩٣٧ نقل مديراً لمعهد القيصر فلهم للكيمياء الحيوية في برلين . وكان البحث الذي أجراه باشراف قندوس — وهو أحد حائزي جائزة نوبل الكيميائية — في فيتامين D وغيره من المواد مهداً لبحثه الدقيق في اتوار (هرمونات) الشق Sexhormones . وفي هذا البحث الأخير يلتقي هو وروزيكا لذلك منحا جائزة ١٩٣٩ مناصفة

بعد ما كشف زوندك Zondek وأشيم Aschheim ان بول الحامل يحتوي على كثير من اتوار الانثى الشقية عني بوتينات يبحث تركيب هذه الأنوار . واستخرج كذلك صيغة تركيب مادة (ستيرويد) غير فعّالة كشفها ماريان في بول الحامل. ثم ثبت بعد سنوات ان هذه المادة من مفرزات المبيض. وقد شهد له أحد العلماء الأميركيين بقيمة هذا البحث . لأنه عرف تركيب هذه المادة قبلما عرفت صلتها بالحمل . وفي هذا دليل — بحسب قول الأميركي — على فائدة البحث العلمي لغير غرض عملي مقصود . ومع ان مباحث روزيكا لها شأن في دراسة الأنوار الشقية في الانثى الا ان معظم بحثه في الأنوار محصور في الأنوار الشقية في الذكر

وفي سنة ١٩٣٤ فاز بوتينات في استخلاص الاندروستيرون وهو هرمون الذكر، مبلوراً وفي السنة نفسها والسنة التي تلتها وصف روزيكا التجارب التي أثبتت تركيبه الكيميائي ، وتمكن كذلك من ان يبدأ بمادة الكولستيرون التي تكثر في الجسم وبعد معالجتها بالأساليب الكيميائية حوّلها الى هرمون الذكر الفعّال ، أي الاندروستيرون

وكشف باحثان يدعيان كالاجر Gallagher وكوخ Koch هرمون ذكر آخر في خصى الثور وما كاد باحث ثالث يدعى لاكير Lacquer يستخلصه مبلوراً حتى فاز بوتينات وروزيكا بتوليده بالأسلوب الكيميائي من الكولستيرون

ولما كانت جزيئات هذه المواد كبيرة التعقيد فتعديل يسير في تركيب الجزيء يجب ان يفضي نظرياً الى مواد كثيرة تعرف بالمشتقات ، وقد وقف بوتينات وروزيكا جانباً غير يسير من وقتها على بحث علمي منتظم في مشتقات أنوار الذكر

اسباب الانتحار

بحث علمي احصائي

بواعثه ومعدله بين شعوب الأرض

ومختلف طبقاتها

الحياة في كل شعوب الأرض آتمن قنية يقتنيها الانسان . ولا بد من أن تبقى في حرز حريز لا تباح للمعتدي إذا شئنا لعمراتنا البقاء . فعلى الرغم من المصاعب التي تصادفها وضروب الهوان والخبية التي تصيبنا يظل الألم عاجزاً في الغالب عن الفوز على الرغبة في الحياة . ومع ذلك يجيء على كثير من الناس أحيان يتمنون فيها راحة الموت وسلام القبر . فالوجود كثير التعقيد لا يخلو من بواعث اليأس والقنوط وكثيراً ما يجد الانسان نفسه في مأزق تصغره فيه قيمة الحياة أمام راحة القبر . تملك هذه الخواطر عنان النفس لحظة عابرة فإذا استطاع الانسان ان يحتفظ في تلك اللحظة بعقله واتزانه أدرك أن مصاعبه تنقضي وان سعياً مقروناً بالحكمة يخرج به من المصعقة ظافراً . ولا ريب في أن غريزة البقاء تضع أمام العزم على الانتحار سداً منيعاً ولكن هذا السد يتهدم في بعض ساعات القنوط الشديد فتزهق الروح وتخمد شعلة الحياة . ومهما يكن السبب فعدد الذين يختارون هذه الطريقة للفرار من تبعات الحياة كل سنة كثار يعدون بالالوف ولكنهم في الغالب هم المغلوبون في ميدان الحياة وانتحارهم اقرار منهم بجزئهم وهزيمتهم **﴿زيادة الانتحار ونقصه﴾** عدد الذين ينتحرون في الولايات المتحدة الأمريكية كل سنة وثبتت حوادث انتحارهم يبلغ نحو ١٦٠٠٠ نسمة . ولا ريب في ان عدداً كبيراً ينتحر فلا يسجل انتحاره لأن أقاربهم يخفون السبب فيدون في سجل الوفيات على أن الوفاة طبيعية أو غير ذلك . ومن المتعذر علينا الآن أن نثبت هل الانتحار آخذ في الزيادة في أميركا أو هو ثابت على متوسط واحد . فلا حصاءات المدونة لم تبدأ إلا في مطلع القرن العشرين لما كان متوسط المنتحرين ١١٥ في الألف وظل يرتفع حتى بلغ ١٧٨ في الألف سنة ١٩٠٨ وظل نحو ١٦ في الألف الى مطلع الحرب الكبرى . فلما دخلت الولايات المتحدة غمار الحرب هبط متوسط المنتحرين تدريجياً الى أن بلغ ١٠٢ في سنة ١٩٢٠ وهذا يطابق زيادة الانتحار ونقصانه في البلدان الأوروبية مما يدل على أن خيبة الآمال التي أسفرت عنها الحرب لم تدفع بالنفوس الى

الانتحار قنوطاً من صلاح الحال . ثم أخذ هذا المتوسط يرتفع في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٢١ حتى بلغ ١٣ر٦ سنة ١٩٢٨ فالاتجاه العام غير معين ولكن الأمر الذي لا ريب فيه أن المتوسط هبط عما كان عليه سنة ١٩١١ ومما يؤثر في هذا الصدد ان متوسط الانتحار بين المال في الريف نقص أكثر من نقصه في مجموع الأمة

﴿ اختلافه باختلاف البلدان ﴾ ومتوسط الانتحار يختلف باختلاف البلدان فيبين عن العادات المختلفة التي يجري عليها السكان وعقائدهم الدينية وأحوالهم الإقليمية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي تزجر النفس وتقيها من الاستسلام لعوامل الهلاك . في الصنف المتوسط نجد الولايات المتحدة وانكلترا وأسوج وويلز واسكتلندا وأستراليا وزيلندا الجديدة وفنلندا . وفوقها قليلاً في علو متوسط الانتحار بلدان البلجيكي والدنمارك وفرنسا ويقل عنها قليلاً بلدان إيطاليا وهولنده ونروج وكندا . وأعلى متوسط للانتحار في اليابان والبلدان الجرمانية كالمانيا والنمسا وسويسرا والمجر وبولونيا وتشكوسلوفاكيا . والمتوسط فيها يتراوح بين ٢٥ في الألف و٣٠ في الألف وهو ضعف المتوسط في أميركا وانكلترا وغيرها وستة اضعاف الى عشرة اضعاف المتوسط في البلدان الكاثوليكية مثل أسبانيا وإيرلندا وشيلي وكوبا . ومما هو جدير بالذكر ان متوسط الانتحار في القسم الكاثوليكي من أرنلدا يبلغ ٣ر٢ في الألف وفي القسم الشمالي وهو القسم البروتستانتي يبلغ ضعف ذلك او نحو ٦ في الألف

﴿ الزوج والبيض ﴾ والانتحار في الولايات المتحدة الاميركية مقتصر تقريباً على البيض ففي أحد عشر مليوناً من الزوج في تلك البلاد لم يحدث سوى ٥٠٠ حادثة انتحار في سنة . وهذه الحقيقة على جانب من الخطورة لأن متوسط القتل العمد بين الزوج عالي جداً . فليس ثمة أساس علمي للاعتقاد القائل بأن الانتحار والقتل يسيران جنباً الى جنب . وأنهما ينشآن عن احتقار الحياة الانسانية . والظاهر ان لكل من العاملين سيرةً نفسيةً معينةً يختلف عن الآخر . فالقتل ينشأ في الغالب عن انفعال عنيف مفاجيء يتلوه الدافع للقتل . أما الانتحار فيغلب عليه ان يكون نتيجة تدبّر وروية وتأمل باطني وهي نفس العوامل التي تخمد الانفعال المفضي الى القتل

﴿ السن : الكبار والصغار ﴾ والسن عامل من أهم العوامل في الانتحار وعلى الضد من الاعتقاد العام يزداد متوسط الانتحار بتقدم السن . فالأطفال والصغار يندر ان يقع بينهم حادث انتحار . نخفتهم ومهجتهم ونشاطهم تحول دون مرارة الحياة وظلمة القنوط . ففي سنني ١٩٢٣ و١٩٢٤ وقع في الولايات المتحدة التي شملتها الاحصاءات ٢٣٠٠٠ حادث انتحار لم يكن بينها سوى ٧٨ من الأطفال او أقل من ثلاثة أعشار واحد في المائة . فرغماً عن الحوادث التي

تشهرها الصحف وتهوّل بها ألم يثبت ان الانتحار بين الصغار مسألة اجتماعية معقدة ولا علاقة لها بما تدّعيه الصحف من نقشي الشعور بالمرارة والحياة بين الاحداث وأكبر دليل على ذلك ان نقص متوسط الانتحار كان معظمه في طبقة الاحداث المراهقين في السنين الأخيرة . وإذا بدأنا التمتع من سني المراهقة الى الكهولة وجدنا انه كلما تقدم الشبان في السن زاد متوسط الانتحار بينهم . بل ان نصف حوادث الانتحار التي تقع في أميركا تقع بين الرجال الذين سنهم ٤٥ سنة او فوق ذلك مع ان الرجال الذين في هذه السن ليسوا الا عشرين في المائة من مجموع السكان والانتحار في الرجال وفي النساء يبلغ معظمه في الكهولة والشيخوخة وهو في الرجال أكثر منه في النساء

﴿الرجال والنساء﴾ والواقع انه يصح القول بأن الانتحار استجابة نفسية خاصة بالرجال فعدد المنتحرين كل سنة ثلاثة اضعاف المنتحرات. ولا يفوق متوسط المنتحرات متوسط المنتحرين الا في السن ١٥ — ١٩ وهو لا شأن له لقلة المنتحرين والمنتحرات فيه كما تقدم . على أننا نستطيع ان ندين من ذلك ان اضطراب الحالة النفسية في سن المراهقة أبعث على انتحار الفتيات منه على انتحار الفتيان. ولكن الآفة تنقلب بعد سن العشرين ويأخذ متوسط المنتحرين يطرد ازدياداً . ومنه ندين ان المنتحرين في سن ٢٥ — ٣٤ يفوق ضعف المنتحرات في ذلك السن ثم يصير أربعة اضعاف في السن ٣٤ — ٤٥ وسبعة اضعاف فوق سن الخامسة والستين

﴿وسائل الانتحار﴾ أما في وسائل الانتحار فللرجل خطة معينة واضحة وللنساء مثلها . فالرجال يستعملون الوسائل العنيفة كاطلاق الرصاص والشنق وهما أكثر الوسائل شيوعاً بين الرجال . أما النساء فيؤثرون التسمم والاختناق بفتح أنبوب الغاز . وفي الغالب يندران تخنار المرأة وسيلة للانتحار تنطوي على اراقه الدم او تشويه الجسد . وقد بلغ من ندرة استعمال الرصاص للانتحار بين النساء ان أشار بعض الأطباء النفسيين (Psychiatrist) الى ان استعمال امرأة للرصاص في الانتحار دليل على ميلها الخنثوي

ومع ان الرجال يطلقون الرصاص غالباً والنساء يؤثرون التسمم الا ان هنالك « أزياء » أي أساليب خاصة تفشو حتى في الانتحار ثم تزول . فمنها في هذه الأيام الارتقاء من نوافذ البنايات العالية . وما لا ريب فيه ان وسائل الانتحار تختلف باختلاف البلدان . ففي سويسرا يفضل المنتحرون ان يشنقوا أنفسهم على ان يطلقوا الرصاص والنساء يفضلن الفرق على التسمم . والانتحار غرقاً في ايطاليا كثير الشيوع فهو بين النساء ثاني وسائل الانتحار شيوعاً وبين الرجال ثالثها . وما لا ريب فيه ان سهولة التناول تعين وسيلة الانتحار في كثير من الحوادث فاذا كان الانسان قانطاً وفتح درجته ورأى مسدساً محشواً أطلقه على نفسه او اذا رأى أمامه جبلاً جديداً

ومكاناً يملق منه انتحار شتقاً . فالوسائل عنده سوانه لا يفضل منها الا ما كان رهن يديه . ولكن هنالك طائفة من المنتحرين تكابد انواع المشاق لتنتحر بطريقة مرسومة من قبل . وقد علمنا حديثاً عن أول حادثة انتحار بالارتقاء من طيارة أقدمت عليها سيّدة لتفوز في موتها بالشهرة التي تخططها في حياتها

﴿ الانتحار والحالة الاقتصادية ﴾ وإذا حاولنا ان نتبين العلاقة بين الميل الى الانتحار وحالة المنتحرين المالية عرفنا ما ينطوي عليه هذا البحث من الصعوبة والتعقيد . والحقائق التي لدينا لا تسوّغ لنا الا الاستنتاج التالي : يندر أن يكون سبب الانتحار واحداً . فقد قيل أن الأثرياء الذين يملكون كل وسيلة للتمتع في الحياة أقرب الى الانتحار من المعدمين الذي لا يكادون يملكون ما يتبلغون به . ولكن الاحصاءات التي بنينا عليها هذا لا تؤيد ما يقال . فسجيلات الوفيات في الولايات المتحدة الاميركية لا تفيدنا في تبين حالة المتوفي المالية والاجتماعية . على أن خير ما نستطيع الاعتماد عليه بعد السجل الرسمي ، احصاءات شركة متروبوليتان للتأمين على الحياة . فلديها طائفتان من حاملي البوالص الشركة طائفة صناعية وطائفة عادية . وتشتمل الأولى على العمال القاطنين المدن ومتوسط الانتحار بينهم بحسب احصاءات هذه الشركة أعلى في كل سني الحياة (بعد العشرين من العمر) من حاملي البوالص العادية وجلسهم من أصحاب المهن الحرة وأصحاب المرتبات

وهناك أدلة أخرى تشير الى أن متوسط الانتحار يتبع الى حدٍ ما الحالة المالية . ذلك أن متوسط الانتحار بين الرجال يختلف باختلاف الاحوال الاقتصادية العامة . ففي سنة ١٩٢٢ قام الاستاذان اوغبرن وتوماس بدرس دقيق خرجا منه بأن الرواج ينقص متوسط الانتحار بين الرجال والكساد يزيده . وقد وصل باحثون آخرون الى مثل هذه النتيجة من طرق أخرى . فحالة الكساد التي كانت سائدة في دوائر العالم المالية والاقتصادية بين ١٩١٣ و ١٩١٥ رافقتها زيادة تذكر في متوسط الانتحار . ثم نقص المتوسط في سنوات الرواج في اثناء الحرب (الكلام على اميركا) حتى بلغ حده الأدنى سنة ١٩٢٠ فلما بدأت فترة الكساد بعدها أخذ يزداد مما يدل على وجود علاقة طردية بين الرواج (أو الكساد) ومتوسط الانتحار . ففي الذعر المالي الذي استولى على وول ستريت في آخر سنة ١٩٢٩ قيل أن الناس الذين فقدوا كل ما يملكونه في تلك الكارثة كانوا يرمون من نوافذ الفنادق التي يقيمون فيها . وقد استنبطت للدلالة على ذلك قصة فقيل أن كاتب احد الفنادق كان يسأل كل من يطلب استئجار غرفة في فندقه « هل في نيتك ان تستعمل الغرفة لغرض النوم أو لغرض القفز ! » والواقع ان حوادث الانتحار ارتقاء التي شهرتها الصحف لا شأن لها في الاحصاءات الرسمية لقلتها

اما في انكلترا فتقسم الأمة الى خمس طبقات اقتصادية ومتوسط الانتحار في الطبقتين الأوليين فوق المتوسط العام ومتوسطه في الطبقات الثلاث الباقية تحت المتوسط العام . ومن الغريب أن أكثر حوادث الانتحار تقع في انكلترا بين اصحاب المهن الحرة وخاصة الأطباء وأطباء الاسنان والمحامين . على حين أنها قليلة جداً بين المعلمين ورجال الدين . ولم تروَ حادثة انتحار واحدة بين رجال الدين الكاثوليك مع ان متوسط الانتحار بين رجال المذهب « الانجليكاني » مثل المتوسط العام . وبين رجال المذهب البروتستانتي فوق المتوسط العام . وعما ثبت ايضاً ان الانتحار كثير جداً بين وكلاء شركات التأمين وتجار المشروبات الروحية واصحاب الحانات وبعض المشتغلين بصناعة الغزل والنسيج . فالاحصاءات البريطانية تؤيد القول بان الانتحار أكثر بين الطبقات الغنية منه بين الطبقات الفقيرة . ولكن الفروق التي تشير اليها الاحصاءات التي لا تكفي لتأييد هذا الحكم الفاصل تأييداً نهائياً

﴿المدن والريف﴾ هل في ازدهار المدن عوامل تزيد النفوس للانتحار ؟ لا نعلم . ولكن الواقع الذي تؤيده الأرقام هو ان متوسط الوفيات في المدن أعلى منه في الارياف . ولعل ذلك عائد الى استقرار العائلة الريفية وقلة الطلاق فيها وقلة الأزواج الذين لا أولاد لهم ولوحدة العادات والتقاليد واتساقها بين الزوج والزوجة . وليس الانتحار في المدن أكثر منه في الارياف فقط بل هو في المدن الكبيرة أكثر منه في المدن الصغيرة ، اذا تساوت العوامل الأخرى . ففي سنة ١٩٢٦ كان متوسط الانتحار العام في الولايات المتحدة الاميركية ١٢ ر ١٢ في الالف . وكان في السنة نفسها في المدن ١٦ في الالف وفي المدن التي يزيد سكان المدينة منها على نصف مليون نسمة ٨ ر ٤ في الالف

﴿الشعب والعقيدة والثقافة﴾ ولما كان سكان الولايات المتحدة الاميركية مؤلفين من شعوب مختلفة فدرس توزيع الانتحار بين هذه الشعوب له شأن كبير في تفهم أسبابه والبواعث عليه . وقد أسفر البحث في هذه الناحية عن ان النسبة على أعلاها بين الاميركيين المولودين ألماناً أو من أبوين المانين ، وعلى أدناها بين الايطاليين واليهود . أما بين الارلنديين فتوسط الانتحار قريب من المتوسط الاميركي العام ولكنه أعلى من متوسط الانتحار في ارلندا . أما الانكليز القاطنون في اميركا فتوسط الانتحار بينهم أعلى جداً من المتوسط الاميركي العام بل هم قريبون من الالمان في ذلك

يظهر من ذلك ان الميل الى الانتحار يختلف باختلاف الشعوب . ولكن لفظة « شعب » لا تدل على معنى معين . ونحن نستعملها هنا للدلالة على ارث تاريخي وثقافي وديني واحد وهذه العوامل النفسية هي من أبعد العوامل أثراً في تكوين فلسفة الحياة . فاذا كان الفرد يسلم بتعاليم

الكنيسة تسليماً حرفياً ويخضع لسلطانها ويأخذ بما ترسمه له من واجبات قليلة الى الانتحار قليل . أما اذا كان نظام الكنيسة غير محكم وسلطانها مهماً وكانت للفرد الحرية المطلقة في توجيه حياته فالراجح أن الميل فيه الى الانتحار يكون قوياً . وهذا يعمل الى حد ما قلة الانتحار في البلدان الكاثوليكية . فالانتحار شيء نادر بين فلاحي اسبانيا وإيطاليا وإرلندا وغيرها من البلدان الكاثوليكية . حتى في ألمانيا حيث يكثر الانتحار نجد فرقاً بين متوسطه في روسيا اللوثرية وبافاريا الكاثوليكية

ومما يتصل بالعقيدة الدينية في تحديد الميل الى الانتحار الوجهة الفكرية التي تخلقها الثقافة السائدة . فمن الشعوب من يخضع للسلطان سواء كان روحياً أو عقلياً أو سياسياً أو اجتماعياً على أنه إرادة الله . والفلاحون في الغالب هم من هؤلاء فأنهم يقبلون سلطة الكنيسة والدولة ويسلمون معها بأن الانتحار جريمة في نظر الله والدولة . فهم يحسبون الحياة هبة من الله ويعلمون كما يعلمون ، أن على كل انسان أن يحمل صليبه مسلماً ، من غير أن يتساءل عما في ذلك من عدل أو جور . يقابل ذلك آراء الطبقات المتعلمة ومعظمهم في الغالب من سكان المدن وعندهم ان للفرد مقاماً خاصاً في نظام الاجتماع وينتظرون من الحياة اسباغ نعمها عليه فاذا لم يتم ما يطلبون شعروا ان الحياة نفسها نجيب مقاصدها وتقطع عليهم سبيلها فتضطرب عقولهم وتقلق نفوسهم من هنا يكثر انتشار الانتحار بينهم

لقد أتينا فيما تقدم على العوامل الخارجية التي لها أثر في زيادة متوسط الانتحار أو نقصانه . ولكن الاقدام على الانتحار أو الرغبة فيه نتيجة نزاع نفسي . فما هو الا الفصل الأخير في «درامة» نفسية غيفة . وفي بيان هذا النزاع يجب ان نلجأ الى الاطباء النفسيين . هؤلاء يقولون ان الانتحار نادر بين الناس ذوي العقول المتزنة والعواطف المستقرّة . وأنه منتظر في الذين على الضد من ذلك . فقد شرّح الدكتور بيفير (Pfeiffer) جثث ٦٠٠ متحجر فوجد في عدد كبير منها آفات في الدماغ . وحلل الدكتور سترنز (Sterns) عدداً من حوادث الانتحار في ولاية ماستشوستس فوجد الجنون جلياً في ثلثها ووجد في ثلث آخر أعراض النورستينيا أو إدمان الكحول والتحدرات . وهناك حالتان نفسيتان اليهما ترجع أسباب كثيرة من حوادث الانتحار . الاولى الملائخوليا وأساسها الشعور بالتدني والضعف . والثانية «دمنشا بريكو كس» ومن مظاهرها شعور الاستعلاء والعظمة ومنها وهم يسيطر على مريض فيقنعه بأن الله يدعو اليه . ثم هنالك الجنون الناجم عن الإصابة بالخلق (السفلس) أو ادمان الكحول . وبعد كل هذا نجد حوادث انتحار الباعث عليها اضطراب عقلي أو شعوري من غير أية إصابة عضوية وهذه ترجع غالباً الى طريقة التعليم والتهديب وطريقة اتصال الفرد بالمجتمع فيستولي عليه شعور الحية والهدوء والقنوط

ماذا تحبني

اليزابت بارت بروتنغ زوجة الشاعر الانكليزي الكبير روبرت
بروتنغ كانت شاعرة كبيرة ولعلها أعظم شاعر اللغة الانكليزية . ومن
أثارها مجموعة من الاغاني (سونيتات) أطلقت عليها عنوان « اغان من
البرتغالية » ومنها هذه الاغنية الغرامية الممتازة بالرفقة والحنان

إذا كان لك أن تحبني، فليكن ذلك لأجل الحب وحده .

لا تقل: أنا أحبها لبسمتها ، لنظرتها ، لحديتها اللطيف ،

للفتة في فكرها تنسق مع لفقات فكري ، وتنشئ شعوراً

بالارتياح والطمأنينة كل يوم من أيام الحياة .

لأن هذه الأشياء بحد ذاتها قد تتغير ، يا حبيبي ،

أو قد تتغير في نظرك ، فالحب الذي نسج منها

ينحل كما نسج . ولا تحبني لما تشعر به من الاشفاق

اذ تمسح الدموع عن خدي ، فقد ينسى المكان

الذي تطول نماء في عطفك ان يبكي ، فيفقد حبك كذلك .

ولكن أحبني للحب ، لكي يمضي حبنا ، حياً الى الأبد .

شعر البارودي

حياته وصورة عصره (١)

لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

شعر البارودي حياته ، فكل قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملم . والديوان في مجموعه صورة للعصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي أحاطت به ، وللنهضة المتوالية في الحياة حوله ، وللثورة التي تمخضت عنها تلك النهضة ، وللنكسة التي أصابت النهضة والثورة كليهما ، والتي نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاماً وبعض عام ، يستأثر الشعر بها جميعاً . وقد اختار البارودي أثناء فنيه أجود ما قيل من الشعر في العصر العباسي ، وقال أجود مما اختار ، فبعث الشعر العربي خلقاً جديداً . وشعر المنفى كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التي أراد لها القدر أن تكون نفماً من الأنعام ، تسمو بها النشوة إلى ذروة السرور والطرب حيناً ، ويدفعها الطموح إلى مضطرب الثورة والمثل الأعلى حيناً آخر ، ثم تصقلها السن وبصقلها النفي ، فاذا الحكمة والحزن والحب تبعث إلى هذا النغم سكونية تسمو به على المألوف من ألحان الحياة ، لا يغير من ذلك ما يدفعه النفي إلى نفس الشاعر من ألم تترجم عنه صيحات فائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من نزوات شبابه وثورة كهولته .

أما وديوان البارودي حياته ، فلا بد في تقديمه من وصف هذه الحياة ، ومن تصوير البيئة التي عاش فيها . وليس يتسع التقديم للإفاضة في الوصف والتصوير . فلنتناول من جوانب هذه الحياة ، ومن نواحي هذه البيئة ما يجلي أمامنا الحالات النفسية التي أملت على الشاعر شعره . وسنرى أن هذا الوصف كثيراً ما يوضح أغراض الشاعر ، فيعيننا على إدراكها كاملة ، ويجلو لنا العمل العظيم الذي أتمه البارودي ، فبعث به الشعر العربي واللغة العربية ، ومهد لنا من ألوان المتاع بهما والاتفاع بترائهما ما يرفع ذكره في الخالدين

— ١ —

ولد محمود سامي البارودي بمصر لأبوين من الجراكسة في السابع والعشرين من

(١) مقدمة الطبعة التي أخرجتها وزارة المعارف وقد وصفت في باب المكتبة في مقتطف نوفمبر ١٩٤٠

شهر رجب سنة ١٢٥٥ هجرية (١٨٣٨ ميلادية) . وكان أبوه حسن حسني بك البارودي من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة في عهد المغفور له محمد علي باشا والي مصر . وكان عبد الله بك الجركسي جده لأبيه . أما لقبه « البارودي » فنسبة الى بلدة إيتاي البارود إحدى بلاد مديرية البحيرة . ذلك ان أحد أجداده الأمير مراداً البارودي بن يوسف شاويش ، كان ملتزماً لها ، وكان كل ملتزم ينسب في ذلك العهد الى التزامه . وكان أجداد البارودي يرقون بنفسهم إلى حكام مصر المالك . وكان الشاعر شديد الاعتداد بهذا النسب في شعره وفي كل أعماله ، فكان له فيه أثر قوي في جميع أدوار حياته ، وفي المصير الذي انتهى إليه

ولقد حُرِم البارودي العطف الأبوي منذ نعومة أظفاره . مات أبوه بدنقلة وهو في السابعة من عمره ، فكفله بعض أهله وضموه اليهم . وقد تلقى في بيتهم دراسته الاولى من الثامنة الى الثانية عشرة من عمره ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع امثاله من الجراكسة والترك وابناء الطبقة الحاكمة . فقد كانت الجندية مظهر السيادة والعزة ، ومن ثم كان لزماً على أبناء هذه الطبقة أن يتعلموا فنونها لينهضوا بالمناصب الرئيسية للدولة . هذا الى أن مصر كانت يومئذ في أوج النشاط الذي بشه فيها محمد علي ، والذي كان الجيش أسسه وقوامه

وخرج البارودي من المدرسة الحربية في أخريات سنة ١٢٧١ هجرية (١٨٥٤ ميلادية) ، وهو في السادسة عشرة من عمره . ولسوء حظه وحسن حظ الأدب كانت ولاية مصر قد آلت حينئذ الى عباس الأول ثم الى سعيد . وكان عباس قد عدل عن الحطة التي بدأها محمد علي حين رأى الدولة العثمانية تنظر الى جيش مصر بعين الريبة والقلق . لذا تعطلت النهضة التي كانت متصلة بالجيش في الصناعة والتعليم ، وبدأ يخيم على مصر جو من الركود وإن دأبت الروح المصرية في توثبها بعد الذي رآته من قوتها على غزو الشعوب وغزو المملكة العثمانية نفسها

وأطلق عهد سعيد وخرج (الباشجاويش) محمود سامي البارودي من المدرسة الحربية في هذا الجو الراكد تستجبن في حناياه أسباب اليقظة والقلق . ماذا تراه يصنع ؟ لقد سرّح الجيش وأقفرت ميادين القتال من ألوية مصر ، وقسر هو وأمثاله من رجال السيف على عيش الحمول والدعة . وكان أكثر هؤلاء رجالاً صفار الأحلام لم يلبثوا ان اطمأنوا الى سكينتهم وسكنوا الى خمولهم . ولعل كثيراً منهم قد سرّهم البعد من مواطن القتال وخطره ، وطاب لهم عيش الدعة والتنادر بفارغ القول وهراء التهمة والنفاق . فأما هذا الشاب الذي لم يخض بعد غمار الحياة والذي يجري في عروقه دم الامارة والمجد ، فقد أحس ثورة الشباب تهزّه هزاً عنيفاً . تطالع الى الماضي القريب وذكر مسيرة الأعلام المصرية الى بلاد العرب والى سورية والى الأناضول ، فتعنى لو انه نعيم بنعيم هؤلاء الغزاة وشاركهم في سراتهم وضراتهم . وتطلع الى

ما قبل هذا الماضي ، فارتسمت أمامه صورة أجداده الممالك يحكمون على ضفاف الوادي ، فحن
الى عهدهم ، وتمنى لو كان معهم . والمضى حلم مسعد ما اتصل بمستقبل برجو الانسان فيه مجداً
وسلطاناً . لكنها ألم لا ذع حين يطلب اليها الماضي أن نحققها فاذا المستقبل أمامنا مظلم عبوس
كيف يتسلى الشاب عن هذا الألم ؟ ألا سبيل إلى ميادين يخلقها وحروب يخوض غمارها
مع الحائضين ؟ ان العرب أجدادنا الاولين — والعربي جد لكل من تكلم العربية —
قد سجدوا في شعرهم وقائع الحرب ، وصوروا ميادينها ، وبلغوا من قوة تصويرهم أن اجروا
فيها حياة لا تبلى ، حياة لا تعرف الركود ولا الضعف ولا الاستكانة . فليرجع الشاب الى ديوان
الحماسة وليقرأ الشعراء الذين يطوون الزمن امام بصائرنا ، ويجعلوننا ، على بعد ما بيننا وبينهم ،
نسمع قعقة السلاح ، ونرى نزال الأبطال ، ونشترك معهم في المعركة بقلوبنا وأرواحنا ، وإن
لم نشترك فيها بدروعنا وسيوفنا

اندفع الشاب يقرأ الشعر العربي القديم ، فتخزن ذاكرته القوية منه كل ما طاب لها
ادكاره . وألقى البارودي في هذا الشعر روعةً وجمالاً يأخذان باللب ، ويحركان اللسان الى
القول . وهذا الشعر لا يقف عند الحروب والميادين وما تخلعه على الأبطال من مجد ، بل
يتناول الحياة كلها : جدها وهزلها ، حلوها ومررها . ففيه الغزل والوصف والحكمة ، وكل ما
يطمح الانسان ان يجده فيه . وأنت كلما ازددت إمعاناً في قراءته وتدقيقاً في معانيه ، انفسحت
لك أماده ، فازددت به متاعاً وبحفظه تعلقاً

وتحركت نفس الشاب لقول الشعر بعد ان توفر على مطالعته واستظهاره . لكن ! أي
شعر يقول ؟ وإلى أي الأغراض ينزع ؟ أيمدح ؟ ولعن من ؟ ولماذا ؟ أفيدعو ؟ ولكن من ؟
والى أي شيء ؟ وهل بين الأغراض أنبل مما يحجول بنفسه من آمال وآلام ! أليس هو البارودي
سليل الممالك ، الطموح الى المجد والى الفخر بماض مؤئل ! والدم الذي يجري في عروقه ،
وإن فقد أباه طفلاً وعاش يتيماً ، يسمو به على أمثاله من أرباب السيف جميعاً ، بل يسمو به
على كل من في المملكة ، ويجعله وحده الجدير بأن يكون غرض شعره

هذه النزعة في شعر البارودي بدت منذ شبابه ، ومنذ بدأ قريضه يستقر لتحفظه الأجيال .
والقصيدة التي رثى بها أباه وهو في العشرين من سنه تصرح بهذا المعنى واضحاً جليلاً . فهو يقول
فيها إنه فرد بين أجداده لا نظير له فيهم . وهو يكرر هذا المعنى في كل شعره طول حياته .
وإيمانه بتفوقه هو الذي سما به الى الذروة من مناصب الدولة ، كما أنه هو الذي انتهى به إلى
النفي وبشعره إلى الخلود

ولقد رضي البارودي عن شعره منذ قاله ، إذ رآه صورة نفسه وما تصبو اليه في مجده .

لذلك لم ينصرف عنه حين عبره أبناء طائفته أنه يحاكي النظامين الذين يلتمسون عطف حاكم أو عطاء أمير . وكيف يسمع لهم أم كيف يطيعهم وهو يقول الشعر سموًا بأغراضه عن ان تصاغ إلا في أجل اللفظ وأروع العبارة . ١ . ولقد سبقه من الأمراء في الدول العربية شعراء مجيدون خلد الدهر شعرهم وأثبت التاريخ في أجد صحفهم أسماءهم . كان ابن المعتز شاعراً ، وكان الشريف الرضي شاعراً ، وكان أبو فراس شاعراً ، وكان امرؤ القيس قبل هؤلاء جميعاً شاعراً . ولقد قرأ البارودي شعرهم جميعاً فطرب له واهتز لروعه . أفلم يقرأ من يعبرونه مثل ما قرأ ؟ وما ذنبه اذا قد بهم جهلهم عن المتاع بحمال الشعر وقعدت بهم قرايحهم عن صوغ مثله ! وهو في هذا المعنى يقول :

تسكمت كلما ضين قبلي بما جرت به عادة الانسان ان يتكلم
فلا يتمدني بالاساءة غافل فلا بد لابن الأيك أن يترنم

كانت دولة الشعر ناشئة إذ ذاك . فكان عبد الله فكري ومحمود صفوت الساعاتي وعبد الله نديم وقليلون غيرهم يقولونه في اغراض شتى . لكن البارودي الناشئ كان من طراز غير هؤلاء جميعاً . كان غيرهم بنفسه ، وبفكره ، وبمثله الأعلى في الحياة ، ثم كان غيرهم بموهبته في الشعر . فهو لم يتعلم النحو والصرف والعروض والقوافي ، وهو لم يقل الشعر بيتي بقوله مأرباً . إنما سجع به لأنه في سليقته ، ولا بد لابن الأيك ان يترنم ، وسجع على عادة الأمراء الشعراء من قبله ليخلق من بحوره ميادين لمجد يعوضه مما فات سيفه في ميادين القتال ، بعد ان ردت الأقدار سيف مصر الى غمده

على انه رأى الجو المحيط به لا يتسع لتحليقه ولا لطموحه . ولعله رأى كذلك ان هذا الشعر العربي الذي اتصلت أنعامه بروحه قد يضيق على سعته عما تصبو اليه روحه . لذلك سافر الى الآستانة عاصمة الدولة ، والتحق بوزارة الخارجية ، وتعلم اللغتين التركية والفارسية ، وعكف على آدابهما ، فاستظهر شعرهما وتغنى بأوزانه ، ودعته سليقة الشاعر الى القول فقال بالتركية وبالفارسية ، كما قال من قبل بالعربية

على ان السليقة العربية كانت أصيلة في نفسه ، فلم يفتأ طوال السنين التي أقامها على ضفاف البسفور يقرأ دواوين الشعراء الأمويين والعباسيين ويدرسها ويستظهر منها ما يطيب له استظهاره فلما كانت سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٣ ميلادية) سافر اسماعيل باشا بعد ان تولى أريكة مصر يرفع الى متبوعه الأعظم بالآستانة آي الشكر على ولايته ، وألحق سامي البارودي بالخاصة التي صحبتها أثناء مقامه بدار الخلافة ، فنوسم اسماعيل فيه النجابة والطموح ، فعاد به الى مصر في شهر رمضان من تلك السنة

— ٢ —

عاد البارودي الى مصر في الرابعة والعشرين من سنة يبدأ صفحة جديدة من حياته فقد عقد اسماعيل العزم على ان يعيد مصر سيرتها في عهد جده. فيجب ان يكون لها جيش قوي وأعلام خفاقة ، ويجب ان تعود الى نهضتها في العلم والصناعة ، بل يجب ان تتطلع اليها أنظار العالم كله إعجاباً بها وتقرباً اليها . ويجب لذلك ان تنقل كل مافي أوروبا من اسباب الحضارة ، وأن تسير في ذلك بخطى جبارة تجعل هذا العاهل المصلح يرى بعينه ثمرة سياسته ومجوده

ورقي البارودي في رتبته العسكرية اول ما نزل مصر وعين على قيادة فرقتين من الفرسان Les Gardes ففتح رقيه آفاقاً من الحياة أمامه جعل عابستها يسم له . وزاد في ابتسامها أنه لم يلبث في منصبه الجديد الا قليلاً ، ثم اوفد الى فرنسا مع جماعة من ضباط العسكرية المصرية حيث شهدوا مناورات الجيش الفرنسي السنوية ، ومن هناك سافروا الى لندن ، فشهدوا من الأعمال العسكرية ما زادهم بها علماً

وعادوا جميعاً الى مصر ، فاذا الحظ يلقي البارودي مفتوح الذراعين ليضمه اليه ، فيرق به في سنة الى رتبة « القائمقام » في فرسان الحرس Les Gardes ، ثم الى رتبة « اميرالاي » ليتسلم قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص . أي شيء هذا الا أنه المجد الذي طمح اليه صبيّاً ، فلما لم تيسر له أسبابه هجر مصر الى الاسكندرية . أما وقد بدأ الدهر يعرف له مكانه وبهيء له اسباب العظمة طامعاً مختاراً ، بل مقتبطاً مسروراً ، فقد بدأت الامور تطمئن والمدل يعود الى مصر أفان لهذا الشاب ان يستقر ؟ كلا ! فقد شبت الثورة في جزيرة اكريطش (كريت) على الدولة العثمانية بعد أربعة اشهر من تسلمه تلك القيادة . وكانت سياسة اسماعيل ترمي الى محاملة الخليفة ومعاومته ليلبغ الغاية من اغراضه . لذلك أرسل جنداً يعاون قوات جلالته على قمع تلك الثورة ، ثم كان البارودي « رئيس ياور حرب » في هذا الجند . ما كان أسعده يوم عين ، وما كان أشده سعادة يوم سافر ! لقد شعر بسيفه يهتز في قرابه ، ويده تمسك مقبض هذا السيف لتضرب به الثأرين ، ورأى مجد الجندي يتجلى امامه وهو واقف على السفينة يلقي على الموج المصطخب نظراته الهادئة المطمئنة . فلما رست به السفينة على شاطئ الجزيرة النائرة خفّ بتقديم رفاقه مسرحاً بصره في الأودية والوهاد حوله ، مشوقاً أي شوق للقاء الذين خرجوا على الولاء للدولة وتكسبوا عن طاعة السلطان . وأحسن البارودي البلاء في الحرب ، فأثمن عليه السلطان بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة . لكن إنعام البارودي علينا وعلى نفسه كان أعظم من كل وسام . ففي هذه الحروب قال نونيته التي مطلعها :

أخذ السرى بماقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان

كما قال أبياته التي استعملها بقوله :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
من يومئذ بدأت الأنظار تنطلق الى البارودي الشاعر تطلع إعجاب وإكبار . لقد ترنم
هذا الشاب بأنغام في الشعر لم يألفها أهل زمانه . فهم إنما ألفوا تجارة ومرزقا . كان محمود
صفوت الساعاتي ، أسلم معاصريه ديباجة وأقومهم عبارة ، لا يقول إلا ليمدح أمراء الحجاز
أحيانا ، وولادة مصر وساداتها أحيانا أخرى ، يتبغى عطاءهم ويرجو احسانهم . وكان ما يعرض
في شعر هؤلاء المعاصرين من حكمة او فخر قولاً معاداً ، سبقهم اليه غيرهم في ديباجة أمتن
ولفظ أكرم . وكانوا جميعاً متأثرين بشعر المتأخرين ، فكانت المحسنات البديعية عندهم كل شيء
وكانت معانيهم في جملتها مطروقة متداولة . اما هذه الفقرة التي قفزها البارودي فسما بها الى
مكان الفحول من الشعراء الأولين في الجاهلية والعصور الأولى من الاسلام ، فقد أثارت عجب
الناس واستثارت إعجابهم . وحق للناس ان يعجبوا . فهذا الشاب الشاعر الملم هو الرسول الذي
بعثته العناية لينفخ في الشعر العربي روحاً تنشره من الجثث الذي انطوى عليه القرون الطوال ولهمد
السبيل من بعده لأبناء مذهبه : شوقي ، وحافظ ، وإسماعيل صبري ، ومن نسج نسجهم وسار سيرتهم
ما الجديد الذي استرعى الأسماع في شعر البارودي ؟ أهو الأسلوب الجزل والديباجة
البدوية اللذان تجلبيا في كثير منه ؟ لكن أسلوب الساعاتي وديباجته كانا لا يخلوان من جزالة
وبداوة ، وقد نزع جميع الشعراء إبان هذه النهضة الأولى ذلك المنزع ، فان فاقهم البارودي وسما
عليهم فلا جديد في تفوقه . إنما الجديد الذي استرعى الأسماع لشعره ودعا الى الإعجاب به ،
هو نزوعه الى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلاسة وقوة ، دون اعتماد على محسنات اللفظ
البديعية من جناس وطباق ونحوها ، ودون اغراب في الخيال ، ان آثار العجب لم يثر الإعجاب
وفي شعر البارودي ظاهرة لعله لم يقطن لها اول الامر احد . فهو قد اعتمد في تصويره
الواقع على حاسة النظر اكثر من اعتماده على سواها . وأنت اذ تقرأ قصيدتيه اللتين اثبتنا
مطلبهما عن حرب اقريطش ترى تصوير المراثيات واضحاً فيهما كل الوضوح ، وترى هذا
التصوير سهلاً لا تعمّل فيه . فهو في القصيدة الأولى يصور الليل الضارب بجراحه فوق الرمي
والمتالع ، لا تستبين العين في ظلماته غير الضوء المنبعث من أسنة الحراب ، وغير التماع سيوف
التأثرين المختفين في جنح الظلام ، فاذا أصبح الصبح رأيت هذه الجبال انقلبت أسنة وأعنة لكثرة
العدو الجاثم فوقها ، ورأيت الماء أحمر قانياً لكثرة ما يختلط من دم القتلى به

وتستطيع أن ترجع الى القصيدة الثانية في هذا الجزء من الديوان لترى صورة الحرب
دائرة الرحي ، والخيول مائجة من الكر والفر صدورها ، والأرض دائرة بالأبطال كأنهم

سكاري من وقع الهول ، والشاعر يرى هذا كله ثم يقول :

صبرت لها حتى تجلست سماؤها ولإني صبورٌ إن ألمَّ بي الخطبُ

وتصوير المنظور صفة بارزة في شعر البارودي كله . وذلك شأنه بخاصة فيما لم يزرع فيه الى تقليد المتقدمين . بل لقد كان هذا التصوير الروائي للمنظورات يغالبه وهو يقلد . وبأنيته المشهورة التي قالها في صباه معارضاً قصيدة الشريف الرضي « لغير العلا مني القلا والتجنب » ، والتي مطلعها :

سواي بتحنان الأغاريد يطرب وغيري بالذات يلهو ويعجب

فيها من هذا التصوير شيء غير قليل . وأنت ترى التصوير واقعياً في غير تقليد في بانيته التي مطلعها :

أين أيام لذتي وشبابي أتراها تعود بعد الذهاب

وهو يصف في هذه القصيدة مشهداً لمصر تراه أعيننا كما رآه هو ، ويصفه وصفاً قوياً يجعله حياً ناطقاً ، كله النشاط والحركة . ولقد قال هذه القصيدة وهو منفي في سردينيا بأسف فيها لذهاب الشباب ويحن الى وطنه ، فاذا الوطن صورة منظورة أمامه يرسمها رسم مصور بارع ولقد قوت البيئة التي عاش فيها البارودي هذا الجانب التصويري من شاعريته . فهو منذ

عاد من أقريطش بعد قمع ثورتها ، قد أقام اثنتي عشرة سنة كاملة بعيداً عن ميادين القتال عين أثناءها ياوراً (بمعنى) الخديو اسماعيل ، ثم رئيس الياوربة ، ثم اصطفاه الخديو كاتم سره الخاص ثم سافر في رحلتين قصيرتين الى الآستانة في مهمة سياسية تتصل بفتنة الهرسك ، ثم بفتنة البلقان والجيل الأسود في هذه السنوات الاثنتي عشرة كانت مصر ميدان حياة ونشاط قل نظيرها في أمة من

الأمم : نهض بها اسماعيل بعد النكسة التي أصابها في عهد سلفيه سعيد وعباس الأول نهضة هي أدنى إلى الثورة منها الى النشاط . أراد لها ان تقف مع الأمم الاوربية في صف الحضارة وان تكافئها في الوجود الدولي وهذه الأمم قد بلغت مكائنها في أجيال متعاقبة بذلت انشاءها جهوداً جبارة لتبلغ ما بلغت . فليضعف ابو الأشبال اليهود ، وليجعل الزمن رهن أمره ، وليدفع مصر متضافرة معه ، قوية بقوته ، ليصل في سنوات إلى ما وصلت اليه اوروبا في تلك الأجيال . وماذا ينقصه او ينقص مصر لتحقيق هذه المعجزة ؟ العزم ! الذكاء ! الهمة ! البأس ! هذا كله

موفور فيه وفي مصر . وكل ما عليه ان يتجنب ما وقع فيه جده الأكبر فلا يناصر الدولة العثمانية العداوة فينجو من تألب اوروبا عليه . فأما المال فالحصول عليه يسير . فمصر غنية ، وقناة السويس التي تشق خلالها سبيلها ثراء وتجعلها مركز الحياة في العالم . ذلك ما يؤكد ديلسبس ، وذلك ما لا سبيل الى الريب فيه . فلتعترض مصر المال لتحقيق نهضتها المعجزة التي تبهر العالم . ومصر

الناهضة الفتية القوية قادرة على اداء ديونها وعلى مضاعفة ثروتها

وأول ما مرَّ بخاطر اسماعيل ان تضارع عاصمته نابليون الثالث ، وان تكون القاهرة باريس الشرق ، ولم تك إلا سنوات حتى قامت القصور شاهقة على شاطئ النيل بين الجزيرة

والروضة : روضة المقياس . لكن اسماعيل كان أبعد نظراً وعمق ذكاء من ان يكتفي بهذه المظاهر . فلفتح المدارس ، ولتد السكك الحديدية ، وليعم النشاط المعمر أنحاء الدولة جميعاً ، ولتضارع حكومة مصر شركة قناة السويس في الجد والمنارة ، وليكن افتتاح القناة بين البحرين الأبيض والأحمر مشهداً فذاً في تاريخ العالم كله ، تقع فيه أعين الملوك والساسة على مصر المتحضرة الناهضة بعبد الحضارة كنهوض فرنسا وانكسرتا بعثتها ، وعلى اسماعيل ملك مصر ذي الأيد قائماً في أبهة من السلطان تدوي أمامها أبهة اصحاب العروش في الدول الأوروبية كلها وقد رأيت البارودي في معية اسماعيل ورأيت أمين سره . والبارودي شاعر قوي الحس طموح الى العلا ، ابتسم له الحظ فقرَّبهُ من صاحب العرش ، وجعل الحياة وسرها ونعمتها في ملكه وطوع يده . ماذا يصنع ؟ أقام بحلوان ، وأرخى لشبابه ولهوى الشبان العنان . فعرف الشراب ومجاسسه ، والفواني وقتنهن ، والطرب بالموسيقى وبالغناء . وقال في هذه الأغراض جميعاً ، فما تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها . لكنك في حل من ان تسأل : أأمن في الحب وخضع لسلطانه ؟ او بلغ من إدمان الشراب وحياة اللهو ما بلغ الماجنون ؟ أم كان شعره في الغزل وفي الخمر شعر محاكاة اكثر منه تحديداً عن غرام صادق آخذ بمجامع قلبه ، وعن اغراق في اللهو والخمر وولع بهما ؟ أحسبنا في حل من القول بأنه كان مقلداً في غزله وفي خمرياته ، وان هوى نفسه كان الى شيء غير المرأة وغير الخمر ، وان حديثه عن الخمر وعن المرأة إنما كان مقدمة الى الفخر والوصف والسياسة وغيرها من الأغراض التي يريد القول فيها ، وانه في هذه المقدمة كان ينسج على غرار الأقدمين

وما اكثر ما نسج البارودي على غرارهم ! فهو طالما راض القول معارضاً الفحول الأولين ، محاولاً ان يذهب في ديباجته وفي قوة معانيه . وقد وفق للفوق عليهم في أحيان . وقصّر عن مداهم في أحيان أخرى . وكثيراً ما كان ينتقل في معارضاته من بيئته المصرية الحديثة الى بيئة بدوية جاهلية او بيئة اسلامية بالشام او بالعراق في عهد بني امية او بني العباس ، ثم كان يحمل الغزل واللهو بالخمر والنساء ، والحماسة والفخر ، اغراضاً له في القصيدة الواحدة على طراز من حل نفسه على معارضتهم ، وكانت ذا كراته القوية تؤاويه فيما يعارضهم فيه حتى تخاله احدهم ، ويختلط عليك الأمر إذا اردت ان تميز بين شعره وشعرهم . ومن كانت هذه حاله لم يكن غزله ولم يكن لهو صادرين عن عاطفة ألهبها الحب او حركتها الخمر بمقدار ما حركها الحرص على التفوق في حلبة الفحول الأولين

وأنت تراه يذكر في الحب ما تكاد تظنه حكاية حال ، كقصيدته عن غرامه بفادة حلوان ولما لنيل الى القول بأن هذا الغرام لا يزيد على صورة تخيلها الشاعر ، وأقصى ما يذهب اليه الظن انها صورة رآها في ليلة أس فأمجينة تخلف عليها من شعره معاني الغرام ، وإن لم يملكه

حب ولم يغم بنفسه غرام . فالقصيدة التي تقص هذه الحكاية تبدأ بالتمر والحدِيث عنها ، ثم
تروي حديث هذا الغرام لتنتقل منه الى الفخر بقومه الذين يدفعون عنه مصارع هواه ، فهم :
رجال أولو بأس شديد وتجدد فقولهم قول وفعلهم فعل
اذا غضبوا ردوا الى الأفق شمسه وسال بدفاع القنا الحزن والسهل

وانت ترى تداول هذه الصور في الكثير من قصائد شبابه : خمر وغزل ونفر . ولا ريب
في انه كان يحس ما يقوله في هذه الأغراض جميعاً . لكن الذي لا ريب كذلك فيه ان الحب لم يفتن
ليه يوماً ، وان التمر لم تذهب يوماً بعقله ، فأما الفخر فكان يعبر عن أمانيه الحفية وآماله المكظومة
أقام يقول الشعر في هذه الأغراض وفيما يتصل بها ، متقللاً بين حلوان والجزيرة ، سعيداً
بمقامه الى جانب اسماعيل ، مطمئناً الى حظّه بمصر ، اثنى عشرة سنة كاملة . وكما اختزن
ذاكرته الشعر صدر شبابه فقد اختزن في هذه السنوات المتعاقبة من صور مصر ما زاده حباً
لها وتعلقاً بها ، وما جعله يتحدث في شعره عنها ويصف بديع مناظرها وصفاً لم يسبقه اليه
احد . وصف نهرها الفيض ابا الخير والنعمة ، ووصف مزارعها الفسيحة تتراعى امام النظر الى
حدود الأفق ، ووصف آثارها الفرعونية على نحو لعله احدث ما جدد الشعر في عهده . وصف
هذا كله مستقلاً بوصفه حيناً ، جاعلاً منه بعض موضوعه في قصيدة من القصائد حيناً آخر ،
مستمتعاً به في الحالين ، مسبقاً عليه من روعة شعره ثوباً يزيد جمالاً ويزيد المصري له حباً وبه تعلقاً
فالما كانت سنة ١٢٩٤ هجرية (١٨٧٨ ميلادية) أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وارسل
اسماعيل جيشاً يعاون متبوعه الأعظم . وسافر البارودي مع الجيش ، واشترك في الحرب ، وكوفى
عن مواقفه فيها بانعام الخليفة عليه برتبة أمير اللواء وبنيشان الشرف (الميداليا) وبالوسام المجيدي
من الدرجة الثالثة . ولم تصرفه ميادين القتال عن قول الشعر ، بل لقد بعث منها الى مصر من
عيون شعره ما جرى بعضه مجرى الأمثال . ومن ذا الذي لا يحفظ قوله :

اذا نحن سرنا صرح الشر باسمه وصاح القنا بالموت واستقتل الجند

وفي هذه الفترة أضاف البارودي الحنين الى الوطن الى اغراض شعره . فهذا الحنين الذي لم يكن
بأدباً أيام اقريطش قد بدأ في حرب البلقان بظهر قوياً ، كما ترى في أبيات هذه القصيدة بل في مطلعها
هو البين حتى لا سلام ولا رد ولا نظرة يقضي بها حقّة الوجد

وظل تصوير المنظور واضحاً في هذا الطور وضوحه في أطوار شعر البارودي جميعاً . بل ظل
يزداد قوة ووضوحاً ، وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص . فالبارودي إذ كان يسجل الصور
في شعره لم يكن يسجلها في صمتها وسكينتها على ما يولع به عشاق الطبيعة الصامتة ، بل في نشاطها
وتحركها ، حتى يرسم أمامك فيض الحياة في كل ما تقع عليه عينه وما تحيط به باصرته [للبحث تمة]

تَلْسِيْقُ الْاَصْلَاحِ

الاجتماعى فى مصر

لسعادة محمد العشماوي بك

المستشار الملكى لوزارتى الاشغال والشئون الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »

« لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس »

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر

والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل

والمسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في

البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء

عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان »

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »

« ولا يجرمكم شركائكم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى »

سيداتي سادتي : بهذه الآيات اليبينات من كتاب الله تبرز الدعوة الى الإصلاح الاجتماعى

قوية ملحة وفريضة ملزمة . وتقوم الدعوة على أساس من البر الخالص والعدل المطلق والتعاون

على الإصلاح والنهائي عن المنكر ، والتحذير من الانحراف في الترف ومن التفاني في الفسوق

والزهو بالعرض الزائل والزخرف الباطل ، والحض على التضحية بالمال للترفيه عن ذوي الحاجة

وردد فضل مال الغني على الفقير تخفيفاً للبؤس وإصلاحاً لحال السواد الاكبر من أفراد الأمة ،

وللقضاء على أسباب الضغن والثورة النفسية الهدامة ، والدعوة الى التواد والترحم لتقوم الحياة

الاجتماعية على قواعد مدعمة بالتقوى والصبر على الشدائد وضم الصفوف انصمد للاحداث مها
تعظم ، يؤازرها إيمان قوي ويشد من عزيمتها روح سامية وثابة

« مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عَضُوهُ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ
الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ »

« لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْتَهِيَ عَنْ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيَسْلُطَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شُرَارَكُمْ ثُمَّ يَدْعُو
خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ »

« كَلِمَ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ
رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّأْسُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ
رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »
وبهذه الكلمات المحكمات من آثار الرسول الكريم الذي جاء بالهدى ودين الحق يُثَبِّتُ
هذا المصلح الاجتماعي الكبير دعوة الاصلاح في القلوب ويدعو الى التعاون الاجتماعي دعوة
صريحة ويجعله أساس العمران ويشعر الفرد بواجبه نحو نفسه ونحو الأمة يصلح بملاجها
ويفسد بفسادها ويكبح للخير العام ويتألم للأحداث التي تصيب بني قومه فتقضى من مضجعه
وتحرمة لذة ما قد ينعم فيه من جاه وثناء ، ويفرض العمل للاصلاح فرض عين لا يفرق بين
القائمين بالأمر وأفراد الرعية ، ويجعل هؤلاء هؤلاء ميداناً للاصلاح الاجتماعي يعملون فيه
ويحتملون أعباءه ويُسألون عما قدموا من نفع وما دفعوا من ضرر وما أصلحوا من أمر ، وما
أقاموا من عدل وما حفظوا من أمانة وما ضيعوا عن خيانة

« وَلِيَكُنْ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وَأَعْمَى فِي الْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرِّعِيَّةِ ، فَإِنْ
سُخِطَتِ الْعَامَّةُ يَجْهَفُ رِضَا الْخَاصَّةِ . وَإِنْ سُخِطَتِ الْخَاصَّةُ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ . وَإِنَّمَا عِمَادُ
الدِّينِ وَجَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ لِلْإِعْدَاءِ : الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم »

« وَلَا يَكُونُ الْحَسَنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ تَرْهِيدٌ لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي
الْإِحْسَانِ ، وَتَنْذِيرٌ لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ »

« ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عَمَّاكَ فَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِبَاراً وَلَا تُؤْتِهِمْ مَحَابَةَ وَأَثَرَةً ، وَالْزِمِ الْحَقَّ مِنْ لَسَنِ مَنْ
مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ »
وبهذه العظات البالغات والحكم الرائعات من عهد الإمام علي للأئمة النخعي حين ولأه
مصر يُوضَعُ أساس الحكم الصالح على قواعد العدل المطلق والحق الصريح ، دون نظر لأي
اعتبار إلا ما يملكه المصلحة العامة لسواد الشعب ، وما تقتضيه هذه المصلحة من إشارات كافية

واختيار لذوي البلاء الحسن والتزهد عن المحابة والأثرة والتزام الحق وحده وتقوى الله وحده، وخلق بدولة تقوم على هذا الأساس المتين وهذا الركن الركين أن يسمو بنيانها على كل بنيان، وأن تبقى على الزمان

وما أحوجنا — ونحن نرسم طريق الاصلاح ونعتبره، ونلقي في جنبات الوادي صرخات مدوية تدعو اليه وتحببه للنفوس وترد القوم عن طريق الفواية وتحملهم على توخي المنهج القويم في الحياة وفي طرائق الحكم — أن نهتدي في دعوتنا بهدي الكتاب والسنة وتأثر سبيل من من رفعوا علم الاصلاح خفافاً وملثوا الدنيا عدلاً وأمناء عاش الناس في أكنافهما حقبة من الزمان وادعين ناعمين وأعزاء مكرمين

سيداتي وسادتي: أخذت مصر بأسباب نهضة شاملة يرحى أن تتناول ميادين النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي جميعها، وأن تتغلغل روحها في مرافقها كلها. وبدأت البلاد تحس العزة والكرامة. يشير هذا الاحساس ماضٍ مجيد، ويحفزها الى استكمال وجوه الاصلاح في شتى الميادين أمل في المستقبل وطيد. والبلاد في حاضرها تواجه أحداثاً جساماً تشد عزمها وتربي فيها قوة الاحتمال وتجعلها أكثر شعوراً بحاجتها لهذا الاصلاح الاجتماعي الذي تنشده تستحث خطاه وتذيع مبادئه وتوسع آفاقه وتأمل أن تقيم أركانها على قواعد ثابتة باقية على الزمان. ومصر في نهضتها هذه تنوء بأعباء الماضي القريب، وتواجه أكبر مشكلات الحاضر، ونهباً لاحتمال آثار ما يتمخض عنه المستقبل من أحداث. وقد زاد في تعقيد مشكلات الحاضر حاجات الحياة المتزايدة وأعباء الاستقلال ووعورة طريق الاصلاح. ومصر في الوقت ذاته تنوء بتركة ثقيلة خلفتها للجيل الحاضر ملابسات الحيل الماضي وما كان يرسف فيه من أغلال هدأت من كيانه وشلت نشاطه وأضعفت من إنتاجه المادي والفكري على السواء، والبلاد تحتل هذه الأعباء في وقت هي أحوج ما تكون فيه الى التحفز لتخطو خطوات واسعة مطردة، تلاحق بها من تقدمها من الشعوب الناهضة وتعوض بها ما فاتها من إصلاح

ومصر قبلة الشرق العربي ألقى اليها بمقاليذ الزمامة راضياً مطمئناً واتخذها مثله الأعلى في نظام الحكم وسياسته ونظام التعليم وخطته ومناهجه ونظام الاجتماع ووسائل علاج مشكلاته وطرائق الاصلاح في مختلف آفاقه. وهذه الزمامة والقذوة تقتضيانها النهوض بالأعباء كاملة وأن تثبت جدارتها للمقام الممتاز الذي تشغله باعتبارها حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ويقتضيانها أن تكون المثل الصالح والقذوة الحسنة في كل ناحية من نواحي النشاط فيها. ومصر في دور الانتقال في كل مرفق من مرافقها في الثقافة والتفكير والاقتصاد وفي حياتها الاجتماعية وحياتها السياسية، وهي تجتاز هذا الدور في أحوال قاسية خطيرة لا تسمح بالتردد ولا التواني

ولا التواكل، ويقتضيها هذا الدور مناعة في الأخلاق العامة والخاصة وقوة احتمال وشجاعة وإقداماً واعتماداً على النفس وتضحيات فادحات ووضع المصلحة العامة فوق كل اعتبار وتوافر الجهود لرعايتها وصيانتها من كل عبث تمليه الشهوات وضعف الشعور بالمسؤولية ومصر على ما أفاض الله على واديه من الخصب وما تيسر لأهلها من أسباب العيش بشيع في جوانبها الفقر وتحيا الأغلبية الكبرى من سكانها في عوز وبؤس لا تكاد تظفر بالكفاف، تفككها الأمراض ويسودها ظلام الجهل. ومعظم ثروتها ليست في يد أبنائها. وريفها لا يزال مباعاً لكثير من الأمراض الاجتماعية والجسمانية الفتاكة، مع أنه يضم اليد العاملة التي يقوم على إنتاجها صرح الثروة في البلاد

ومصر بالرغم من هذا كله لا تزال تتردد في الخطوة التي تخطوها لصالح الحال ولا تزال الجهود التي تبذل بعيدة عن أن تحقق إصلاحاً اجتماعياً شاملاً، ولا تزال دعوة الإصلاح تولكها الأسن وقد تملىء بها بعض القلوب ولكنها لا تكاد تخرج إلى حيز العمل، بل إن فكرة الإصلاح لا تزال غامضة لم تكيفها دراسة عميقة في أمراضنا الاجتماعية لتعرف نوع العلاج الذي يلاننا ويحدث أثره العاجل في نهضتنا ويواجه مشكلاتنا العامة والخاصة ويجدد القوى ويحفز الهمم. ولا تزال زنجيل الإصلاح ارتجالاً ونذكره لماماً في بعض المناسبات، دون أن نضع له برنامجاً شاملاً يتناوله في شتى مناحيه ويسير به في طريقه المرسومة صوب أهدافه الموضوعية ولا تزال الهيئات التي تعنى ببعض نواحي الإصلاح محرومة التأييد الأدبي والمادي الذي يعينها على النهوض بمهمتها

ولا تزال برامج أحزابنا التي تتداول الحكم تكاد تكون خالية من وضع برنامج عملي لتحقيق الإصلاح الاجتماعي، والعمل على دعم أركانه وجعله سياسة قومية ثابتة تسمو على الخصومات وتستند إلى وسائل إيجابية فعالة صالحة للتنفيذ

ولا تزال يعوزنا أهم وسيلة لتحقيق هذا الإصلاح والمضي فيه، وهي تنسيق الجهود المبذولة أو التي تبذل في سبيله تنسيقاً مطبوعاً بطابع التعاون على البر والتفاني في الواجب وموسوماً بوحدة الغرض واستقامة التوزيع، تؤازره قوة الإرادة والرغبة في الكمال بل لعل أخطر ظاهرة في حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر انعدام البرنامج الشامل ونقص الدراسة وفقدان التنسيق وضعف الاشراف وتبليل الرأي في نوع الإصلاح الذي نحتاج إليه وخطأ التوجيه وامتناع الاطراد في العمل لمنابعة البناء والتجديد

ولقد بدأت أول محاولة لتحقيق هذا الاشراف والتنسيق في ميادين الإصلاح الاجتماعي في أوائل سنة ١٩٣٦ عند ما أصدرت الحكومة تشريعاً بإنشاء مجلس أعلى للإصلاح الاجتماعي

ولكن هذه الخطوة لم تعد استصدار تشريع سقط لعدم عرضه على البرلمان ثم طوي المشروع ثم بدأت بعد أربع سنوات أو ما يقرب منها محاولة أخرى أعظم خطراً وأبعد أثراً وأكثر دلالة على الاهتمام الجيوي بحركة الاصلاح الاجتماعي ، وهي إنشاء « وزارة الشؤون الاجتماعية » ولا تزال هذه الوزارة تستكمل عدتها وتعي قوتها لمكافحة الادواء الاجتماعية التي تهدد من كان الامة ، وقد أنشئ لهذه الوزارة على أثر تكوينها مجلس أعلى لتحقيق وجوده سياسة التوفر على دراسة مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى ، ووضع أسس السياسة العامة التي تقوم الوزارة على تنفيذها. ولكن هذا المجلس لم يتم تأليفه ومن ثم لم ينعقد للآن ، وبقينا حيث كنا نرجل الاصلاح ارتجالاً دون أن نضع له سياسة ثابتة او نرسم في سبيله خطاً واضحة المعالم يبين الأهداف ، نتيجة بحث شامل ودراسة عميقة لمشكلاتنا الاجتماعية المختلفة

سيداتي وسادتي : إن مهمة الاصلاح الاجتماعي في مصر واسعة الآفاق متشعبة النواحي تكاد تتناول كل ناحية من نواحي حياتنا العامة والخاصة ، والمشكلات الاجتماعية كثيرة وخطيرة وهي تزايد وتعمق ويزيد في خطرها أنها لم تعالج علاجاً ناجحاً بل لم تدرس دراسة عميقة شاملة ، فلدينا مشكلة إصلاح الأسرة المصرية والعمل على أن تكون عنصراً فعالاً في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ، وتوفير أسباب التماسك بينها والقضاء على عوامل الانحلال فيها ، وكل إصلاح لا يقوم على أساس صلاح الأسرة مقضي عليه بالفشل المحقق . وعندنا المرأة وهي عماد الأسرة أحوج ما تكون الى إعداد صالح يهيئها لأن تقوم بمهمتها الاصلاحية السامية في الحياة وفي محيط الأسرة وفي المحيط الاجتماعي تبني الرجال وتشجئ الحيل نشأة قوية صالحة ولدينا مشكلة الشباب وكيف نوجهه توجيهاً يمكن البلاد من الارتفاع الكامل بشجرة جهودها في ميادين الثقافة والاقتصاد والاجتماع وتهيئته ليكون عدة الوطن في الملمات ويملاً فراغه بالعمل المثمر والتفكير السليم ويفرس فيه فضيلتي الايثار والطموح ، ولدينا مشكلة المتعطلين من المثقفين وهي تنذر بالشر كلما تقدم الزمن وتراخينا في حلها على وجه يقي البلاد شرها وعلى الأخص من الوجهة الاجتماعية ، دون الحد من انتشار التعليم

ولدينا مشكلات الريف وهي في ذاتها أكبر المشكلات وأبعدها أثراً في حياتنا بوصفنا أمة تريد ان تعيش عزيزة الجانب كريمة قوية ، وعلاج هذه المشكلات يتناول علاج البؤس والفقر والمرض والجهل وما يجره من ويلات أهمها انتشار الاجرام وضعف الانتاج وخراب الريف . ولدينا مهمة تنظيم الاحسان الذي يبذل على غير هدى وفي غير سبيله فيذهب ضياعاً دون أن نحني منه نقعاً أو ندفع به غائلة

ولدينا الانحلال الخلقي وما يجره من ضعف صفات الرجولة وعدم الاعتماد على النفس وقلة

الأقدام وضعف روح التضحية وضياع الثقة والاسراف في الشهوات . ولدنيا غير ذلك كثير مما لا يحده الحصر من نقائص اجتماعية كل نقيصة منها خليفة بأن تشغل شعباً بأسره وتقض مضجعه وتقوض من أركان مهنته . ولا يجوز ان تكون مهمة الإصلاح الاجتماعي وفقاً على الحكومة أو على هيئة بعينها ، ولكنها مهمة تقع على عاتق الحكومة والجماعات والأفراد وكل قادر على ان يضطلع بها بقدر ما يسر له وما توافر له من وسائل وما فرض عليه من واجبات ، فعلى الحكومة ان تجعل الإصلاح الاجتماعي في مقدمة المسائل التي تعنى بها وتوفر لها من المال والجهود والكفايات ما ينهض بها . وعلى كل وزارة ان تضع لنفسها برنامجاً للإصلاح الاجتماعي يتصل بنوع العمل الذي تباشره ، وعلى كل هيئة عاملة ان تخص الإصلاح الاجتماعي بنصيب من كسبها تتناول به إصلاح شأن العاملين فيها . وعلى أصحاب المصانع والمتاجر والمزارع الكبرى ان يخصصوا جانباً من جهدهم وكسبهم للعناية بالنواحي الاجتماعية الخاصة بعمالهم والتي ترمي لإصلاح شأن البيئة التي يتناولها نشاطهم الاقتصادي

وعلى الهيئات المحلية ان تخصص في ميزانيتها أموالاً للمساهمة في الإصلاح الاجتماعي في دائرة عملها وأن تضع برنامجاً لهذا الإصلاح وتقوم على تنفيذه . وعلى رب الأسرة أن يكون داعية إصلاح في محيط أسرته ، وعلى المثققات من فتيات ونسائنا أن ينهضن بهذه المهمة التي هي واجب وطني مقدس يأتي في المرتبة الأولى من شئون الحياة ومشاعلها

وعلى البلاد حكومة وشعباً أن تحشد القوى وتعد العدة للكفاح في هذا الميدان المتراخي الأطراف الذي يقتضينا كل جهد وكل تضحية وكل بذل . فميدان الإصلاح الاجتماعي هو ميدان الجهاد الأكبر : جهاد النفس والمرض والفقر والآنحلال الخلقي والجهل والظلم ، وبغير هذا الجهاد — نقوم به متساندين بإيمان عميق — لن نتوافر لنا القوة التي نستطيع بها أن نكافح عدونا ونكفل سلامة وطننا ونهيء له أسباب القوة والغلبة والحياة الحرة الكريمة سيداني وسادتي :

تلك أمثلة نسوقها عن طائفة من المشكلات التي نواجهها وما تتطلب من عناية وما تقتضيه من جهود لا تستقل بها طائفة ولا تقع على عاتق هيئة بعينها بل يجب أن تتعاون البلاد على حلها وعلاجها مستعينة بما توافر لها من قوى كامنة وظاهرة ، ويجب أن يكون الشباب المثقف رسول الإصلاح في هذه الميادين جميعها ، كل في دائرة ثقافته

ويجب أن يوضع لهذا الإصلاح الشامل برنامج كامل واضح المعالم يتناوله في جميع نواحيه بما يحقق التوازن والتنسيق ، ويضم الجهود ويوجهها الى غاياتها تحت إشراف دقيق ، تمليه روح اجتماعية قوية

وهنا تظهر وظيفة وزارة الشؤون الاجتماعية واضحة والحاجة اليها بيّنة ، فهي في نظري وزارة تنسيق للاصلاح وتنظيم له تنقصاء في نواحيه المختلفة وتستعين بكل الهيئات على تحقيقه وتضع السياسة العامة التي يسير عليها وتشرف على تنفيذه وعلى أنه يجري طبقاً لهذه السياسة المرسومة وتمدد العاملين على الاصلاح بالنصيحة والارشاد والعون المادي والتأييد الأدبي وتضع من التشريع ما يحقق هذا التنسيق والتنظيم ويوجه الاصلاح وجهته بما يلائم حالتنا وبيئتنا وتقاليدها الصالحة وبما يجنبنا الفوضى والاضطراب والثورة والاشتغال بتوافه الامور والزخرف الباطل ولعل خير ما يعين وظيفة وزارة الشؤون الاجتماعية ومجلسها الاعلى ما نضمه التشريع الذي وضع في سنة ١٩٣٦ ولم تكتب له الحياة وتفتد وهو التشريع الذي أنشأ المجلس الاعلى للاصلاح الاجتماعي وجعل مهمته « تحري كل ما من شأنه ان يعين بأي وجه من الوجوه على تقدم البلاد الاجتماعي » واختصه « بمراقبة أحوال التطور الاجتماعي للبلاد وبالنظر في الوسائل والتدابير والاصلاحات التي ترمي الى توجيه هذا التطور توجيهاً يتسق مع خصائص الشعب المصري وتقاليده ومبادئه » كما اختصه بالسعي « في التوفيق بين مقومات الحياة الاجتماعية للبلاد وبين آثار التقدم المادي . وما استحدث من وجوه العمل الاقتصادية واحوال الحياة الجديدة » . وناط به على الاخص « ببحث نظام الاسرة ودراسة الاصلاحات التي تؤكد تماسكها والحفاظ على كيانها وصيانة حقوق الولاية فيها » وأوجب « أخذ رأيه مقدماً في كل مشروع قانون ولائحة ذات صفة أومرى اجتماعيين أو من شأنه التأثير في أحوال البلاد الاجتماعية » وأجاز له أن يقوم مباشرة « بدراسة أية مسألة اجتماعية أو إجراء بحث أو تحقيق بشأنها والاستعانة بالادارات الحكومية المختصة في هذا البحث وأن ينصح بضرورة إصدار قانون أو اتخاذ تصرف إداري معين » . ويجب أن تتخفف وزارة الشؤون الاجتماعية عما يشغل كاهلها من تفاصيل العمل الاداري لتتفرغ لهذه المهمة الخطيرة ، وأن تزود بالكفايات التي تستطيع بها أن تدير سياسة الاصلاح قدماً نحو الكمال

إن شعور الأمة المتزايد بحاجتها الى الاصلاح الاجتماعي لدليل على حيويتها ، وما على الداعين للاصلاح من أبنائها إلا أن يستغلوا هذا الشعور ويحشدوا قواهم ويعملوا للاصلاح متساندين ، يحفزهم سمو الغاية والتفاني في العمل على سلامة الوطن . وفقنا الله للخير الخالص وهدانا سواء السبيل ، ووقانا شروور الفسوق والاثم والعدوان ، وأعاتنا على حل هذه المشكلات الاجتماعية الخطيرة حلاً يوفر للبلاد رفاهيتها وسلامتها وعزّها ويجنبها العثار والزلازل وعوامل الانحلال والتخاذل والشقاق : « إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيتي إلا بالله عليه توكلت واليه أئيب »

الطب المصري

بين عمرهين

لعمالي الدكتور علي ابراهيم باشا^(١)



كثير من الشباب المصريين الناشئين في هذا الحيل ، لا تتجه أفكارهم الى الموازنة بين حالة الأطباء المصريين الآن ، وبينها من نحو أربعين سنة ، ولا يدور بخلدكم أن حالة الأطباء المصريين التي هم عليها الآن تختلف كثيراً عما كان عليه حالة اخوانهم . فهم لا يشعرون بالصعوبات التي قامت في طريق اخوانهم المصريين اذ ذاك ، ولا يقدرّون المشاق التي استنفدت كثيراً من جهودهم وأوقاتهم حتى استطاعوا ان يذلّوها بقوة حزمهم ، وصادق عزمهم

ولقد دفعت في الحياة العملية في ذلك العهد كما يدفع كل مبتدئ ، على حالة من العلم لم تصل بعد الى درجة النضوج المرضية ، تعوزني التجارب التي هي ثمرة العلم وغايته ، كما انها كذلك مصدره ومنشؤه . فكان من الطبيعي أن اصادف صعوبات كثيرة ، وأواجه مشاق متعبة ، في أعمالى الحكومية ، وكذلك في أعمالى الطبية الخارجية

كان الأطباء المصريون في أعمالهم الحكومية — بمدرسة الطب ، وبمصلحة الصحة — لا يتولون إلا المناصب الصغيرة ، لا يتعدونها الى ما هو أرقى منها ، فلا كفاية تشفع لهم ، ولا مقدرة تنفعهم ، في حين كان الأجانب مستأثرين بالمناصب الكبيرة فيها أيضاً كان حالهم . ففي مدرسة الطب لا يسمح للطبيب المصري ان يرقى الى أكثر من مساعد أستاذ ، وفي مصلحة الصحة لا يرقى الى أكثر من مفتش صحة في مديرية أو رئيس لمستشفى بأحد الأقاليم

واعتقد أنكم تدركون النتائج الخطيرة التي تترتب على مثل هذه المعاملة وتحسون الأثر البالغ ، الذي كان يحز في نفوس المصريين ، وتقدرّون ما كان يتبع ذلك من اضعاف العزائم وقتل المواهب ، ونشر أسباب اليأس في النفوس

على هذه الحالة كان الطبيب المصري في عمله الحكومي من نحو أربعين سنة . أما العمل الحر فلم يكن فيه أسعد حالاً ، ولا أهناً بالاً ، فقد كان المصري لا يثق بطب أخيه المصري ، ولا

(١) مقتطفة من خطبة مماله في حفلة تكريمه

يطمئن إلا إلى الطبيب الأجنبي ، مهما يبعد مكانه ، أو يرتفع أجره ، فانصرف الناس إلى الأطباء الأجانب ، ورحلوا إليهم في العواصم والمدن الكبرى ، ماداموا قادرين على الأجر ونفقات السفر ، ولم يكن يلجأ إلى الطبيب المصري إلا الفقير المضطر الذي أعوزته المال ، وأقعدته العدم كانت هذه حالنا في ذلك العهد . ولرب سائل يسأل : كيف كان هذا التدهور السريع ، بعد أن سبقنا بزمان قريب ، نوابغ من الأطباء المصريين العلماء ، طبقت شهرتهم الآفاق ، حتى كانوا مضرب الأمثال ، وإليهم كانت تشد الرحال ؟ فهل لهذا التدهور السريع من أسباب معقولة ؟ نعم لهذا التدهور السريع أسباب كثيرة : من أهمها انصراف الغالبية العظمى من الأطباء المصريين عن العمل الحر ، وإقبالهم على الوظائف الحكومية وقصرهمهم على القيام بمطالب الوظيفة على أيسر الوجوه ، وأدناها إلى الراحة ، وأدعاها إلى التخلص من المسؤولية . ومنها أيضاً حرصهم على جمع المال حرصاً شغل حيزاً كبيراً من وقتهم وتفكيرهم ، فقعدها عن الدرس ، وفترت عزائمهم في التحصيل ، وكما مر عليهم الزمن ، أنساهم شيئاً مما علموا ، والنسيان آفة العلم والدرس حياته وهناك سبب خلقي ، كان له أسوأ الأثر وأبلغه في هذا التدهور السريع : ذلك هو انتشار الغيبة والنميمة بين كثير من الزملاء — سبحانه الله — فقد كان بعضهم يقال من بعض بالطنع المر والتجريح المزري ، وينشر ذلك بين المرضى وغيرهم من الأهلين ، فيحط كل منهم من قدر صاحبه ، ويخفض من منزلته . وعرف الناس ميلهم إلى ذلك ، فصار المريض يشايح طبيبه المعالج ويتقرب إليه بالطنع في الطبيب الذي كان يعالجه من قبل ، فيكيل له السباب كيلاً ، ويصب عليه اللعنات صباً ، ويعتقد أن هذا خير ما يجلب رضا صاحبه وأفضل ما يستدر به عطفه وعنايته . فهذا الانحلال الخلقي الفاضح ، وذلك الضعف النفسي المزري ، كان له أسوأ الأثر في فقدان الثقة بالطبيب المصري والخط من قدره ، بين الأهلين بوجه عام ، وبين أرباب المهن الأخرى ، في الإدارة والقانون والهندسة ، وما إليها بوجه خاص

ولعلكم — وقد وصفت لكم هذا الداء وبيلاً ، وصورته لكم تصويراً مهولاً — تظنون أنه من المعضلات التي تحتاج في شفاؤها إلى مجهود الجسارة ، بل إلى المعجزات الفنية وخلق وسائل غير مسبوقه . كلاً يأساده . فكما أنكم تعلمون أن عظم الداء لا يفيد حتماً صعوبة العلاج وخطورة المرض ، لا تستلزم دائماً علاجاً شاقاً مضيقاً . كذلك الحال هنا ، فالأمر في غاية الخطورة ، والعلاج في غاية السهولة هو مبدأ سليم بسيط ، وتنفيذه سهل هين ، وهو مبسور لكل إنسان ويتلخص في كلمة واحدة هي : « الاتقان » !

يجب على كل ذي صناعة أو فن أو عمل أن يتقنه ، وهذا لا يتأتى إلا بالاختصاص له ، والانتظام لدوره ، والتوفر على مسائله ، فإن هذا يؤدي حتماً إلى النبوغ فيه ، ثم إلى الشهرة

به ، وهما لا ينكران ، ولا يعمط صاحبهما حقه من الانصاف ، ونصيبه من الاعظام على هذا الأساس المتين الثابت ، اتفق جماعة من الأطباء المصريين ، وتعاونوا وجاهدوا جهاداً طويلاً ، وناضلوا نضالاً شديداً ، للتغلب على شتى الصعوبات . ومن الغريب المؤلم ان معظم المعارضة كان من بعض اخوانهم المصريين ، أكثر مما كان من العنصر الأجنبي ولكن العاقبة كانت للمتقين

كانت مما اتخذته هذه الجماعة من الوسائل لتحقيق الغرض المنشود ، إنشاء المجلة الطبية المصرية وإنتشارها المضطرد في جميع البلدان الأجنبية المشتغلة بأمراض المناطق الحارة ونجاح مؤتمراتها السنوية في الأفطار الشقيقة والجمعية الطبية المصرية وما ولدت من جمعيات فرعية لشعب العلل المختلفة والصرح العظيم الذي بني لها . وإذ ذاك وضعت المبادئ المستقيمة موضع العناية . وحلت الأخلاق القويمة محل الرعاية . فصار المقام الأول للبحث العلمي المفيد ، والكفاية الممتازة المجدية ، والخلق العالي المتين . وبهذا وما اليه من الوسائل استطاع أفراد هذه الجماعة ان يحلّسوا عن جدارة واستحقاق ، محل الأجانب عندما قامت الحرب العظمى . وهنا أتاحت الفرصة للمصريين ، فأظهروا الكفاية الجديرة بنسل الفراغة العظام ، وأثبتوا النبوغ المعروف عن سلالة العرب الأجداد . فلم يسع الأجنبي إلا ان يعترف فيما بعد بما أنكره من قبل . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، لم يكن في استطاعتهم نكران هذا الفضل الذائع ، ولم يعد في مقدورهم الغش من هذا النبوغ الرائع ، فاستمرّ المصريون في المناصب العالية التي شغلوها ، بعد ان كانوا محرومين إياها أما التقدم الذي أحرزته كلية الطب ، فالفضل فيه راجع الى عدد من اخواني الأطباء المصريين ، على جانب عظيم من الوطنية الخالصة ، والغيرة المحمودة . فعندما أولاني اخواني الأطباء عزيز ثقتهم بانتخابي عميداً للكلية ، قابلت ثقتهم بي بأعفاف من ثقي بهم وجزيهم على اخلاصهم لي بفيض من ولائي لهم . فأحدثت غايتنا جميعاً ، وصدقت عزيمتنا ، على النهوض بالكلية والتقت أغراضنا كافة عند رجاء واحد ، وغاية واحدة : الوصول بالكلية الى المستوى الأعلى الذي يليق بمصر ، وبمعهداتها الخلدني الذكر على الزمن ، معهد الاسكندرية ومعهد عين شمس صحت نية هؤلاء الأطباء العلماء الوطنيين الخالصين على أن يعيدوا لوطنهم سابق شهرته الطبية ، فسدّدوا ارادتهم ، وشدّوا عزائمهم ووجدوا إلتجاءهم ، واستسئلوا الصعب في سبيل مبتغاهم . وكنت أضع آراءهم موضعاً من الأجلال والاحترام ، وأبادر بتنفيذها ، وأعمل جهدي على تحقيقها حتى تمّ لنا تكوين هذا الصرح الشامخ ، وتسنى لنا تدعيم هذا البناء الراسخ الذي لا يقل في إستعداداته وجميل تنسيقه ومحكم نظامه ، وعظيم إنتاجه ، عن أمثاله في أي بلد من بلاد العالم المتحضرة ، بل لعله يفوق الكثير منها

ولم تكن الصعوبات التي صادقتنا محصورة في تدبير المال الضروري لأقامة المباني وأعداد المعامل وتوفير الأجهزة الحديثة ، والآلات البديعة ، ونحو ذلك من سائر المعدات الضرورية ، بل كانت الصعوبة الكبرى في تربية الجيل الناشئ تربية علمية عملية خلقية ، بحيث يسهل عليهم الاضطلاع بأعباء الأعمال التي تسند اليهم ، سواء أكانت هذه الأعمال علمية أم إدارية ، وقد نجحنا — بحمد الله — وبفضل توفيقه ، في أعداد الأطباء الموثوق بهم ، فلا يصعب علينا الآن ان نجد منهم القدر الكافي لسد الحاجة التي تلح علينا الآن — بمناسبة المنشآت الجديدة — عن جدارة منهم ، وثقة منا ، واطمئنان من الجميع . وأنا أعد ذلك أكبر مفعزة لنا نحن الأطباء وأعظم مبررة لوطننا الخالد . وقد أصبح من الأمور المقررة الثابتة أن النبوغ الذي كان يسمى فيما مضى نبوغاً شيطانياً قد أحى أثره ، وصار النبوغ الآن على أساس التعلم المتين ، والعمل المثمر ، والخلق القويم . وذلك أكبر أمنية يرجو كل عاقل تحقيقها في جميع الأعمال

فالرجل في سن الستين وما بعدها ، يرى ان أكبر سلوى له عما فات من شبابه ، وأعظم عزاء له عما يتوقعه من قرب انتهاء حياته ، أن يشعر بأنه قد هيا لورثته المستقبل السعيد ، وأعد خلفائه في الحياة أسباب الرقي والهناء ، وأحس أنهم قادرون على صيانة ما خلف ، قادرون على الزيادة فيه ، والنفع والاتقاع به . هنالك يستقبل الموت مستريح الضمير ، مطمئن النفس واني أتمتع هذه الفرصة الثمينة لأقدم خلفائنا الأغزاء علينا ، المحبين الى فلوبنا ، نصيحة هي خلاصة التجارب الكثيرة وعصارة البحث الطويل ، تلك هي العناية التامة بالاستمرار في تربية أبنائهم على الطريقة التي ربيناهم عليها والحرص الشديد على موالاة السير بخلفائهم ، في النهج الذي سلكناه معهم بدون توقف أو إبطاء ، فان الزمن يسير بدون توقف وبدون إبطاء والأعمار محدودة ، والفرص تمضي وقد لا تعود ، وقد يكون التوثر أو الإبطاء لحظة سبباً في تأخر الكلية وداعياً الى تخلفها . وهذا ما نحذره ونحشاه ولا يرضاه لها أبنائنا البررة المخلصون . هذه نصيحتي أرجو العمل بها ، وأسأل الله التوفيق لتحقيقها

انتهت من الكلام في الشؤون الطبية ، وقد آن لي أن أتحدث عن الشؤون الاجتماعية . فأما آثار الكلية في الشؤون الاجتماعية ، فظاهرة واضحة ، فان شباب الجامعة ، وفيهم أبناء كليتنا ، يمثلون نشاطاً وقوة ، وذكاء وحماسة ، وما وجهت هذه القوى الى أي عمل اجتماعي مفيد الا أثمر ثمرها ناضجاً جليلاً . فما هو ذا مشروع القرش ، ذلك المشروع الجليل ، الذي بحث بعض الصناعات الوطنية بعد فقدها ، كصناعة الطرايش وغزل الصوف ، فقد استغنت البلاد بما تصنعه من ذلك عما كانت تستورده ، ونمت بذلك ثروة البلاد ، وتنهأت فرصة العمل للعمال المتعطلين ، فانتفع بحال العمل أمام القوى التي كانت معطلة واستفادت البلاد

من القوى التي كانت مهمة . فأصبحت مصدر خير ، بعد ان كانت منبع شر وبات الأيدي التي كانت بالأمس ، أقرب الى الفساد ، وأسرع الى الشر باتت تلك الأيدي أقرب من النفع ، وأدنى الى البر . كذلك كان لشباب الجامعة أثرهم المشكور ، في مشروع نهضة القرى ورفي المستوى الثقافي والاجتماعي والزراعي والصحي ، بين طبقات الشعب الفقيرة من فلاحين وعمال ، تلك الطبقات التي لا تزال في حاجة ماسة الى مزيد العناية ، ومضاعفة الجهد لتخفيف بؤسها ، وتقليل متاعبها في نواحي حياتها المختلفة ، وهي الكثرة الساحقة في عدد الأمة ، واليد العاملة في تكوين بنائها ، وتنمية ثروتها ، ومعاناة أشق الأعمال فيها

كذلك كان لهم الفضل في انشاء جماعة انقاذ الطفولة المشردة ، بل هي من عملهم وبفضل جهودهم . وقد تمّ بسعيهم هذا انقاذ فئة من هذه الطبقة البائسة . وتنبهت الحكومة الى شرف غايتهم ، فمدت يدها الى معوتهم ، مما خفف ألم البؤس عنهم وأضعف من وضع الشقاء فيهم ، وان كانت حالتهم تحتاج في ازالها الى مجهود أكبر وأوسع وعمل أشمل وأعم

سيداتي وسادتي : ان الجامعة المصرية ، ومستشفى فؤاد الأول ، لها امران خالدان بضافان الى الآثار الباقية الكثيرة التي خلدت الذكر الجليل ، لمنشئها العظيم الملك العامل المصلح ، المرحوم فؤاد الأول ، فالتقدم العظيم الذي يبدو لسك اليوم في كل فرع من فروع الجامعة الفتية والثمار الطيبة التي تجنيها البلاد الآن وستجنيها في ايامها المستقبلية ، كل ذلك بفضل ذلك الملك الراحل الكريم وبعنانيته وحسن رعايته . فقد كان واسع الاطلاع ، بعيد النظر ، ماعياً بالمؤسسات القرية حريصاً على نهوض بلاده وبناء كيانها على أساس من العلم الصحيح والعمل الصالح . وكان لنا المرشد الأمين ، واليد المحركة القوية ، في جميع أعمالنا ، حتى في سن القوانين واللوائح ، فبحكمته وسداد رأيه ، وصلت الجامعة في مدى قصير الى ما لم تصل اليه نظائرها في الأمد الطويل ، أسبغ الله عليه شأيب الرحمة ، وأعلى مكانه في جنات النعيم

ومن رعاية الله لنا ، وجميل احسانه الينا ، أن جاءنا بخير خلف لخير سلف ، فكان الفاروق الملك العظيم ، خلفاً لوالده فؤاد الراحل الكريم ، فأفاض على البلاد من فيض شبابه الرشيد ، وبث فيها روح الجد والدأب ، بتيار من عزمه الصادق الحديد وصان بذلك ما ورث من المجد وزاد ، وأعلى في بناء اجداده وشاد ، وتناولت اصلاحاته كثيراً من شئون الحياة المختلفة وامتدت الى النواحي العمرانية السكانية ، والأمل كبير ، في أن تصل البلاد في عهده السعيد الى أعلى درجات الرقي ، واسمى مراتب الشرف ، بين الدول المتحضرة الكبرى مد الله حياته وصان ذاته ، وأدام على البلاد نعمه ، ونفعها بسديد رأيه وحسن تدبيره

فضل العرب

فيما أدخلوه من النبات وأساليب الزراعة
في أوربًا (١)

لمحمد مصطفى الدمياطي

ان ثروة البلاد الاسلامية العربية التي طالما بهرت الغربيين تشهد على ما امتاز به مجتمعهم من نشاط مطرد فقد كان الشعب فيها في مقدمة الزراعة ومن أحسن الصناع وأهم التجار في العالم القديم . فالزراعة التي تلقوها في أرفع المدارس سواء في بابل أو سوريا أو مصر صارت لديهم علماً محققاً حتى أنهم وضعوا لها نظريات فنية منظمة على إثر مشاهداتهم وتجاربهم العملية التي أجروها في مهارة فائقة . ولم يأتهم أرفعهم قدراً من أن يفلح الأرض بيده على الرغم من اعتبار ذلك مما يحيط بقدر الانسان في سائر الأمصار الأخرى (٢) . وقد قال الزراعي ابو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد الشهير بابن العوام الاشبيلي الذي نبغ في أواخر القرن السادس الهجري ما معناه « أن من حرث الأرض وبذرها وجعلها تنتج غذاء صالحاً للانسان والحيوان يكون قد عمل حسنة يثاب عليها يوم القيامة » (٣) . وامتاز العرب على الأخص بفلاحة البساتين و (تبلد) النباتات ووصف ارواء الأرض (الهيدروغرافيا الزراعية) . وكلنا يعلم كم كان يبهجهم منظر الأزهار وشذاها لا سيما وأن أمراءهم وأغنياءهم لم ييخضوا ببذل المال في سبيل تفسيق حدائقهم

(١) اعتمدت في كثير مما في هذا المقال على كتاب التاريخ العام بالابتداء من القرن الرابع الى سنة تأليفه كما سيتضح فيما يلي . مصادر الجزء الأول منه تبتدىء من سنة ٣٩٥ — ١٠٩٥ م . المطبوع في باريس سنة ١٨٩٤ بأشراف العالمين « أرنست لافيس » و « الفريد رامبو »

(٢) من قبيل ذلك ما أورده المرحوم محمد دياب بك في كتابه تاريخ العرب في اسبانيا من ان الامير عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قریش غرس بيده نخلة في حدائق قصره أحضرها من الشام والنخل ما كان معروفاً عند الاسبانيين في ذلك الوقت فكانت هي اول نخلة غرست في ارض اسبانيا ومنها تولد النخل الاسباني . ويروى ان الامير كان يراقب نماء هذه النخلة من قصره وينشد

تبت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بارض الغرب عن بلد النخل

فقلت شيبني في التغرب والنوى وطول اكتمائي عن بني وعن أهلي

نشأت بارض أنت فيها غريبة فملك في الاقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي يسح ويستمرى المساكن بالوبل

(٣) وردت هذه العبارة في المؤلف الذي صنفه في الفلاحة وطبق فيه معارف العراقيين واليونانيين والرومانيين والافريقين على الاندلس وهو بحث واف يحتوي على ٣٤ فصلاً عن انواع التربة والمحاصيل والري والحرث والبذر والحصاد والماشية والحدائق والاشجار والتطعيم وامراض النبات

وجلب غرائب الفروس وأكلام الشجر ومهرة العمال من البلاد النائية لضمان نجاحها. وبهذه الطريقة ادخلوا الياسمين في أوروبا والسكاليا الحمراء والبيضاء والورد الأزرق والأصفر ولم يتطلب ادخال النباتات النافعة فساداً ولا جهداً أكثر مما بذلوه فقد جلبوا الآرز من الهند الى اسبانيا عن طريق مصر وصقلية وقصب السكر عن طريق آسيا الصغرى الى الأندلس والتوت الذي عودوه هواء صقلية واسبانيا والقنب والزعفران وبقلة الهليسون المسماة بلسان الاندلسيين الاسفراج وأول من اجتناها الأمير عبد الرحمن الثاني ابن الحكم ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله. والحرف اي «الحرشوف» والفصولية. ومن الأشجار البرتقال والمشمش والأترج والنخل. قال ابن سعيد والرحمان السفري الذي فاض على أرجاء الأندلس وصار لا يفضلون سواه^(١) وغير ذلك

ولما كانت ثروة الأرض في البلاد الحارة الجافة في حوض البحر المتوسط تتوقف على تدبير استعمال المياه فقد عرف أهل العراق ومصر منذ القدم طرق تنظيم المياه الجارية واستنباط المياه من الأرض وتوزيعها في ترع الري كما فطنت الحكومات النظامية المتعاقبة بعد ذلك الى ما لارواء الأرض من الأهمية القصوى حتى نقلها العرب عنهم واستخدموها كلما توفرت أحوال المناخ وطبيعة الأرض وأتاحت لهم استخدام الوسائل الدقيقة بعد ما وقفوا على منافعها. وقد عني الخلفاء بالاتفاق من ملهم الخاص في حفر الآبار وتشديد القنوات ومنح المستقبطين لعيون المياه أموالاً جزيلة مكافأة لهم. ومن قبيل ذلك ان الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور حفر آباراً في طريق الحج الى مكة. وأنفقت زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد مليوناً وسبعمائة ألف دينار من أجل قناة. ومن مثل ذلك ان عمرو ابن العاص بعد ما فتح مصر أصلح جسور النيل وترعه وحذا حذوه في ذلك الطولونيون والفاطيبيون. وأدخل العرب في اسبانيا مستباحين أو دواليب ذوات قواديس تديرها الماشية وقناطر لحجز المياه وترعاً لتوزيعها في شتى النواحي. وأنشأوا محكمة خاصة لتنظيم أعمال الري وتسوية مشاكله. وأوفى ما صنعوه في تلك السببية للاستغلال الزراعي هو منشآت ارواء الحدائق. ذلك انهم أنشأوا على بعد فرسخين من مصب نهر التونا قناطر حجز لتوزيع المياه وحفروا سبعاً من الترع على جانبي ذلك النهر لكل منها سبعة فروع أخرى تتخلل السهل كله بحيث تحترق ما يعوقها من الأرض بواسطة (برايم) من البناء أو قنوات عالية وكانوا يفتحون الترع السبع الرئيسية واحدة بعد أخرى حسب أيام الأسبوع فتمتلئ بالماء وتعذي تلك الترع الصغرى التي كانوا يفتحونها ويقفلونها في ساعات معينة من اليوم. وبهذا المنوال كانت كل بقعة من تلك الأراضي تأخذ نصيبها من الماء

(١) قيل سبب تسميته بذلك ان الامير عبد الرحمن الداخل أرسل رسولا يحضر أخته من الشام الى الأندلس فحلب طرائف من رمان رصافة هشام فأعطى جزءاً منه الى سفر بن زيد من جند الاردن ففرس عجمه فابنح وأثمر وجاء بجناحه الى الامير فغترس منه بجنان قصره الذي أسماه منية الرصافة فانشر نوعه

رَابِطَةُ اسْمِينَا^(١)

خليل مطران

تداني فخي عابراً وتناءى
برغم أولي الأبواب عجّل بينه
أتاح زماني مرة ان رأيت
فما راعني إلاّ فتى في إهابه
أطيت بعشّون أسالة وجهه
تضائل مرمى ظله من نحوله
وفي صدره بحرٌ من العلم لم يضق
يحدث في رفقٍ وليست أناته
عكوف على التحصيل من كل مطلب
جنى الروض ما تجري راعته به
وما ثقّف الأبواب مثل بيانه
يغوص على الدر البعيد مكانه
ويبحث عما يفقد الجهل أهله
ويحرص ألاّ يغمط الفضل حقه
فان يذكر الفضل الذي فيه يعتذر
شبيهاً بطيف في الغداة تراءى
وكان لهم ذخراً وكان رجاء
ولم يولني بعد اللقاء لقاء
شهدت معاً شيخوخة وفناء
وفي محجريه كوكبان أضاءا
وطبق أفاقاً سنىّ وسناء
به ذلك الصدر الصغير وطاء
تنبط عزمًا او تعوق مضاء
يلم به مهما يسمه عناء
فيحلو شراباً أو بطيب غذاء
وما شرف الآداب والأدباء
فيجلوه للمستبصرين جلاء
فيهدي اليهم زينة وثرء
ويعدم بين العالمين جزاء
كأن به من ان يذاع حياء

* * *

(١) قيلت في رثاء الدكتور اماعيل احمد ادهم والاشارة في « رابطة اسمينا » الى سلسلة مقالات ادهم في خليل مطران وهي السلسلة التي نشرت في المقتطف وستنشر قريباً على حدة

أألسى لاسماعيل ما عشت منه أفدت بها أحدوتة وبقاء
 حباني بها قبل التعارف مضافاً عليّ بما لا استحق ثناء
 وقد عاق شكرى عنه فرط احتشامه فهل مجزىء شكر يجيىء رثاء
 وهيات ان يوفى بشعر جميله ولو كان ديواناً لقلّ وفاء

* * *

ألا أيها الغادي وليس بأسف ولا متقاض لوعة وبكاء
 ترفعت عن ان تقبل الضيم صابراً على زمن أحسنت فيه وساء
 وجنبك العيش احتقاراً لشأنه اذا ما غدا فيه العفاف عفاء
 مكانك في الدنيا خلا غير انه مليء النواجي عزةً واباء
 بينك مختاراً صدمت عقيدة وأوقعت حكماً حيسر الحكماء
 وكنت على يسر الأمور وعسرهما تنير بعالي رأيك الحصفاء
 فغالبك الطبع العيوف على الحجي وأصدر من قبل القضاء قضاء
 أمن خطل طرح الأناء وما به من السؤر لم يظهر وقلّ غناء
 وهل ترضي نفس العزيز اقامة على ذلة والداء عزّ دواء
 اذا هان في حب الحياة هوانها فليس لأرض ان تكون سماء

* * *

قرارك ولترع الخلائق سمعها مصاقعها الهادين والسفهاء
 ستبقى لنفع الناس صحف تركتها ولن يذهب الارث النفيس جفاء
 وتذكرك الأوطان يوم نغارها اذا ذكرت أفذاذها التبغاء
 واني لمحزون عليك وجارع ثمالة كأس حسرة وشقاء
 أقول عزاء الآل والصحب والحمى ولي ولأمثالي أقول عزاء
 فرابطة اسمينا أراها قرابة واعتدها فوق الاخاء إخاء

فن التعمية

في الحرب ، وأساليبها في الطبيعة

لعوض جندي

قد أصبحت وسائل خدع الأبصار الحادة ، وغش الآلات المحكمة للتصوير الضوئي ، التي يتذرع بها الأعداء في الحرب العصرية ، على جانب عظيم من الخطورة ، بحيث اضطرت الهيئات الحربية في الدول العظمى ، الى دوام استخدام المتخصصين لاختراع حيل جديدة للاختفاء من الأعداء ، او لاستطلاع خباياهم

ومن حيث ان الغرض من التخفي ، التمويه على المراقبين ، والتغير بهم ، فقد أطلق على سلاح التخفي في البحرية البريطانية اسم « مصلحة التعمية او تعمية »^(١) معدات القتال Dazzle Department ولجأ البريطانيون والفرنسيون في أثناء الحرب العالمية الماضية الى وقاية مدافعهم ، من أعين رقباء عدوهم بخيام شبكية الشكل ، تضرب في مساحات كبيرة من الأرض ، تبلغ الأفدنة وتموه بنقوش مختلفة فيستحيل تمييزها من سطح الارض المحدقة بها أما الألمان فقد ذلوا تلك العقبة السكاداء باختراع مصاف لونية يستطاع بها تمييز الأصابع الصناعية من الحضرة الطبيعية المحيطة بها

ويستعمل الفرنسيون الآن صبغات عضوية أفضل كثيراً مما كانت معروفة في سنة ١٩١٤ ، فلا يستطاع تمييزها بالمصافي اللونية التي تتذرع بها العيون البشرية او بالآلات الفوتوغرافية الجوية ولا شك إن وسائل التخفي في سنة ١٩٤٠ الراهنة أصعب كثيراً مما كانت عليه في إبان الحرب العالمية الماضية . وقد عكفت الدول الأوربية جمعاء على قياس ورسم المناطق التي يحتمل الاسفاد منها في الحرب . ولديها من صورها الضوئية التي صورت من الجو ، ألوف منسقة في أضاير منظمة للرجوع اليها عند مسيس الحاجة . فاذا تبينت عند مقابلة الصور الفوتوغرافية الجديدة التي تلتقط لتلك الأماكن في أثناء الحرب ، بالصور الأصلية المحفوظة لديها

(١) من غما البيت يغموه غطاءه بالطين والخشب — ويقال هو في غمة أي حيرة ولبس — ونعم تليه الخبر بالغم واستعجم والتعمية من غمي عليه الامر — التبس ، ومنه قوله تعالى « فعميت عليهم الانباء »

في تلك الأضابير ، أي اختلاف ، كان ذلك دليلاً على إخفاء الحقائق القديمة ، بوسائل التخبئة الحديثة

وكان تحسين التصوير الجوي ، معواناً على ترقية التخفي الحربي ، فجعل الناس في العالم قاطبة يجدون في سبيل تسفيه الرأي القديم القائل « ان آلات التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) لا تخطئ » إذ تسجل الصور الضوئية التي تلتقط من الجو ، سطح الارض على هيئة مجموعات كثيفة من الأضواء والظلال . ولذلك يتوخى الخبير الذي يعمد اليه في وضع وسائل التخبئة الحربية ، اتخاذ كل ما من شأنه ، التغير بآلات التصوير الفوتوغرافية الجوية . ويتخذ المنظر الذي تصوره المصورات الجوية وضعاً رأسياً . أما في الحياة العادية فان العين ترى الأشباح موضوعة وضعاً يكاد يكون أفقيّاً . وبشاهد الاقليم المزروع ، من الجو ، كأنه حقول مقسمة كتقسيم لوحة لعب الداما ، تفصلها بعضها عن بعض سياجات ولكن الأقطار التي تؤلف من القرى المدمرة ، والمساحات التي خربتها القنابل ، والنباتات المزروعة في مواضع مفرقة ، تبدو للناظر من الجو كشهد مركب تركيباً معقداً . وهذا مما يهيء فرصة فائقة لاجل فن التخفي الحربي الذي قوامه الضوء والظلال ، اذ الخبير بفن التخبئة الحربية يدرس المنظر العام بمقتضى الصور الفوتوغرافية ثم يضع خطة عمله وفقاً لها

والسفن أشهر المعدات التي ألف الجمهور اخفاءها في اثناء الحرب . وقوام ذلك الاستتار ، رسم اشكال غير منتظمة بالزيت ، على سطوحها وجوانبها ، فتبدو للارقاء ، صورة خيالها الاسود ، مطموسة ، فتعذر اصابتها بمقذوفات الغواصات التي تسدد اليها . ويقال إن استعمال فنون التستر الحربي ، في الحرب الاوربية الماضية ، كان سبباً في تقليل عدد اصابات الغواصات لاهدافها ، الى حد كبير جداً

وفي خلال السنين العشر الماضية ، عملت مباحث عظيمة ، بغية اختراع قواعد عامية لاجل ستر السفن عن أعين الاعداء بحيث تبدو لهم ذات هيئة ورسم مطموسين جداً ، بل تظهر كأنها سائرة في طريق مخالف لسيورها الحقيقي ، وذلك باتقان وسائل التنكر وخدع البصر ، فيظن قائد الغواصة مثلاً أن احدى السفن تهم بتغيير مجراها ، فيسدد طوربيده اليها على ذلك الاعتبار فيطيش سهمه في اكثر الاحيان . وذلك من الخداع البصري الذي يتوهمه بشأن حركة ذلك المركب

ومن الحيل المضللة الكثيرة الاستعمال في مناطق الحرب الحالية تسيير السفن في طرق متعرجة إذ أن تصويب الطوربيد وغيره من المقذوفات ، يقتضي عمليات حسابية معقدة جداً .

فاذا ما غيرت السفينة المنشودة مجراها أدنى تغيير، صارت تلك العمليات الحسائية عقيمة وأصبحت أصابتها أو نجاتها، من الأمور المتعلقة بالخط والنحس. ولذلك اخترعت أجهزة متحركة بنفسها، تقود السفن في طرق معوجة، وقد اتسع نطاق استعمالها حتى غدت نحل في أغلب الأحيان، محل الرسوم الزيتية التي ترسم على السفن تضليلاً لأبصار الأعداء.

هذا مع العلم بأن الغرض من الاستخفاء الحربي، برياً كان أو بحرياً، إضعاف الرؤية. فالبارجة القذرة السنجابية اللون رؤيتها أشق من رؤية البارجة السوداء أو المدهونة بطلاء نعير. ويعتقد بعض خبراء التنكر أن المركب إذا دهن دهنًا غير متقن بصبغات شتى، منتقاة انتقاء جيداً، اختلطت تلك الصبغات بعضها ببعض عن بعد، اذ تبدو لناظرها ذات لون سنجابي مبهم، تضعف رؤيته عنه إذا كان لون المركب سنجابياً كاملاً. وتدهن الطائرات بألوان الطيور اذ تجعل سطوحها العلوية قائمة، وسطوحها السفلية زاهية الألوان. أما قاذفات القنابل التي تعمل عادة في الليل، فتصبغ بالأصباغ السود الخالكة لكي تضعف انكسار أضواء المصابيح الكشفية التي تسلط عليها. وقد تبين من الصور الفوتوغرافية التي نشرتها الحكومة الألمانية حديثاً في برلين، مبلغ ارتفاع الدول الأوروبية في ذلك الفن، اذ تمثل أحداها تفصيلاً، الصهاريج التي يخزن فيها النفط الضروري جداً لانكسار مواصلة الحرب الحاضرة. فرأى ولاية الأمور في لندن نقل تلك المستودعات من مواضعها الأصلية التي صورها الأعداء من قبل الى أماكن أخرى مجهولة.

وهذا مما يوضح لنا أن مواارة الأهداف الثابتة، في المستقبل، يجب أن يتم عمله قبل ان نمس الحاجة اليه بزمان طويل. فينبغي اخفاء محطات توليد القوى الكهربائية ومستودعات النفط وسائر المنشآت المكشوفة المستهدفة للهجوم.

والغرض من التنكر الحربي بحالته الراهنة، ختل انظار العدو وغش آلات التصوير الفوتوغرافي التي يستخدمها لالتقاط صور المنشآت الضرورية من حيث (١) اللون و(٢) الضوء و(٣) الظل و(٤) الشكل و(٥) الحركة والرؤية. فكانت الوسيلة الأولى التي توسل بها المحاربون الى التنكر، الاختفاء وراء الأشجار ثم الاختباء فيما بين الأغصان اختباء تاماً ريثما يدنو الخصم فيباغته ذلك الخنفي.

التغمية في الحيوان

ويجدر بي في هذا المقام، آمماً للقائدة في هذا الموضوع أن اقتبس فيما يلي فصلاً وهو الاخير من كتابي (المنتخبات الفريدة في الشذرات والمباحث المفيدة) الذي اصدرته في شباني اي في شهر اغسطس سنة ١٩٠٨ :-

الطبيعة أم غنيمة وأحكامها ثابتة لا تتغير ، حتى انها لا تسمح الذي ينقض أقل شيء من هذه الأحكام ، بل تعاقبه بسرعة واخلص . غير انها أم رؤوم أيضاً فتجمل كل مخلوق موافقاً للوسط الذي يعيش فيه ، وتهب كل حيوان ، غطاءً خارجياً بمثابة حجاب يخفيه عن الانظار ، وسلاح يحارب به الأعداء . ويكون هذا الغطاء موافقاً لماواه وحالة الجو الذي يعيش فيه . فاللون الأبيض أصلح لون للحيوانات التي تعيش في الأصقاع القطبية الشمالية لأنه يجعل الحيوان أشبه منظره بالوسط المحيط به . وعلى ذلك ترى الدب القطبي أبيض اللون ، وهو الدب الأبيض الوحيد . وكذلك الأرانب البرية في جبال الالب والقاقم أو القاقوم « حيوان بيلاد الترك على شكل الفأرة إلا أنه أطول ويأكل الفأرة وله فراء أبيض اللون يستعمل في تبطين الملابس » وثعالب القطب الشمالي بيض لونها في فصل الثلج

ومن الطيور ما تتغير ألوان ريشه في فصل الشتاء ، كالحقا على تباين أنواعها فانها عندما يحل فصل الشتاء تفقد ريش الصيف ، وتكتسي ريش أشبه بلون الصخور التي تختبئ فيها ، ويبيض لونها ابيضاضاً ، فاذا مشى الانسان بجانب سرب منها وهو جائع على الجليد لا يشاهد شيئاً منه وقد لا يتغير لون السمور ، وهو حيوان بيلاد سيبيريا يشبه النمس ومنه أسود لامع واشقر . واهل سيبيريا يصيدون الصغار منها فيخصون الذكور منها ويرسلونها رعى . فاذا كانت أيام الثلج خرجوا للصيد ، فما كان فخلاً قاتمهم وما كان خصيصاً استلقى على قفاه فأدركوه . وقد سمن وحسن شعره ، لأن طباعه لا تجعله محتاجاً الى الابيضاض في فصل الشتاء . ويتغذى السمور بالأثمار أحياناً ، وهو خفيف الحركة فينب من شجرة الى أخرى ويصيد الحيوانات الصغيرة بسهولة . وكذلك الطائر المسمى « تقار الحشب » الذي موطنه بلاد كندا . فان لونه يبقى أسمر في فصل الشتاء ولكنه يبي له وقتئذ أخوصاً على شواطئ الأنهر ويقنات بالسمك . ولون الأسد أشبه بلون الرمل فيخفي نفسه بالربوض على رمال الصحراء . وخطوط النمر تضارع سوق الخيزران العمودية وحشائش الغابات الطويلة التي يأوي اليها . وكثيراً ما تأوي الحيوانات التي من فصيلة القط الى الأشجار ذات القشور فتخفي عن الأبصار وراء أوراقها

ومن الحيوانات المشهورة الشاذة عن ذلك ، الأسد الأميركي لأن فروته ذات اللون الأسمر الرمادي ، ولون لحاء الشجر ، الذي يتعلق بأغصانه متربصاً لفريسته حتى تمر من تحته ، يجعلانه عسير التمييز فلا تعرفه الفريسة فقسقط بين برائه غنيمة باردة . ولعل خطوط الحمار الوحشي الواضحة تكون سبباً في الخطر عليه إذ توجه اليه أنظار السباع والفهود . ولكن الحمار الوحشي

لا تسير قطعاناً فضلاً عن أنها حريصة وسريعة العدو حتى أنها لا خوف عليها في النهار إلا قليلاً ولكنها تكون عرضة للضواري في الظلام حينما تذهب للشرب ويقول السياح إن خطوط الحمر الوحشية السود والبيض تختلط أمام العين في نور الشفق والسحر وتظهر شهباء اللون ، فتعذر رؤيتها ولو على مسافة قريبة ويقولون أيضاً إن الحيوانات الكبيرة كالزرافة مثلاً يمكنها أن تخفي نفسها بتشابه شكلها ولونها بشكل ولون الأشجار الميتة التي تكون في أطراف الغابات أو التي تتغذى بها عادة ، وذلك اذا وقفت ساكنة لا تبدي حراكاً البتة لأن البقع التي في جسمها وعنقها الطويل وشكل رأسها الخاص وقرونها، تظهر معاً مثل أغصان مكسورة حتى إن الوطنيين يظنون الشجرة زرافة والزرافة شجرة . « تم الفصل المقتبس من مؤلفي »

ثم تدرجوا من ذلك في العصر الحديث الى ألوان الملابس إذ اتخذوا منها ذريعة للاستتار . ويقال إن بعض الطيارين الانكليز يلبس بذلات خضر في الصيف حينما تكون الارض خضراء وأخرى دكناء حينما يغير الخريف أوراق الاشجار الى سمراء

ويلوح لنا ان فن الاستتار الحربي كان مهماً او غير معروف في القرن الثامن عشر إذ كان جنود الانكليز تلبس الأزياء الحمر القانئة وزحف جموعاً متراسة . وقد استمرت الحال على ذلك المنوال حتى نشبت حرب البوير فوضع الانكليز أزياء جنودهم على أساس المنفعة الحربية العملية وذلك على أثر التجارب التي جربتها انكلترا في تلك الحرب فالتحذت في سنة ١٩٠٣ نسيج الخاكي الصوفي والقطني مادة لصنع بذلات جنودها

والخاكي لفظ هندي معناه ترابي ، مؤثرين ذلك اللون على سائر الألوان ، اجتناباً لسهولة تعرضه للوسخ ، على تقيض الألوان النضيرة ، ومتخذه وسيلة للتخفي أما الولايات المتحدة الأميركية فقد اصطلحت على أزياء ذات لون أسمر زيتوني إذ ثبت انه أصلح من غيره للتخفي في الأعمال الحربية . وتلبس جنود الجيش الألماني بذلات رسمية ذات ألوان سنجابية ممتازة ، ملائمة جداً للتكر في الأجواء الشمالية (هذا مع العلم بأن المانيا واقعة على خط عرض لبرادور في اميركا الشمالية) أما جيش فرنسا الرئيسي فيرتدي جنوده بذلات ذات لون ازرق سماوي . وجيوش المستعمرات تلبس نسيج الخاكي . وارتدت جيوش فنلندا ملابس بيض ، على الميادين الثلجية ، وذلك في أثناء حربهم مع الروسين ، فحصلوا على نتائج باهرة

وأشهر أمثلة النغمة الحربية التي وردت في المؤلفات اليونانية القديمة المشهورة ، ما جاء

في الياذة هوميروس حيث وصفت الوسيلة التي توسل بها حينئذ أهل مدينة طروادة القديمة التي حوصرت في الحرب التروجاني زهاء عشر سنين حتى أتيح أخيراً التغلب عليها وفتحها ، وذلك بحيلة حربية وهي اقامة حصان خشبي ضخيم وراء أسوارها . إذ أعلن الجيش اليوناني المحاصر أن ذلك الجواد الخشبي الضخم إنما هو قربان لميزرفا وهي الآلهة التي كانت حنقة على الاغريق ، فكانت تعاون الجيش التروجاني المحصور ، وكان جوف ذلك الحصان الخشبي مملوفاً برجال مسلحين . ثم لجأ سائر الاغريق الى سفنهم متظاهرين بالهرب . فظن الطرواديون أن عدوهم قد تخلى عن محاصرهم ، فسحبوا ذلك الحصان الخشبي الى داخل الاسوار ، فانتزح الرجال الذين كانوا مختبئين في باطن الحصان ، حلكت الليل فهبوا من مخبئهم وفتحوا ابواب المدينة لزملائهم الذين كانوا قد ارتدوا عنها فأشعلت النيران في المدينة وبذلك تمكنوا من الاستيلاء عليها

وقد ارتقى فن التنكر الحربي القديم في إبان الحرب العالمية التي دارت رحاها من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ الى علم من العلوم المصرية . واطلق عليه اسم كاموفلاج camouflage الفرنسي كما تقدم القول فأصبح اخفاء الخنادق والحصون والمدافع وصاندي الاعداء فرادى snipers من حلق ، ومراكز الرقابة ، على أعظم جانب من الخطورة ، لإزاء ما تقوم به الطائرات من الاستكشافات الحديثة

وكان قوام ذلك التستر في بعض الأحيان تكديس أغصان الأشجار بعضها فوق بعض على شكل كومه تكوم فوق الشيء المراد اخفاؤه ، ونارة كان يغطى بالجيش الدهون دهناً يشبه لون الصخر . وكانت تقام طوراً ، حصون كاذبة وبطاريات من مدافع مزيفة لفتاً للانظار وتحويلاً لها عن الحصون والمدافع الحقيقية . أو تقام حجب من الدخان الكشيف لتخفي زحف الجنود أو مسير السفن

واستعملت كثيراً القواعد الخاصة بالتلوين الواقي الموجود في عالم الحيوان ، اذ كانت المدافع والوريات وقطرات السكك الحديدية وما إليها ، تدهن بخطوط متعرجة من البلاء أو بلمطخ سود ويض لكي تخفي حدود الأشياء المرسومة عليها . وكانت السفن تنحى بهذا الضرب من ضروب التعمية الحربية ، ومعظم الغرض من ذلك ، إطاشة مقذوفات الغواصات التي تهاجمها عن أهدافها ، لا مجرد الاستتار عن الانظار فقط

وفي الخليفة (كما قدمنا) وسائل للتنكر أو للتلوين الواقي كما يسميه علماء الطبيعة . وغني عن البيان أن خير الألوان للحيوان الذي يقضي حياته جاداً في توقي أخطار أعدائه ، هي ماصعبت رؤيتها إياه . ولذلك ترى سلالات لا تحصى من الحيوانات قد اكتسبت ذلك التلوين تدريجاً إكتساباً كاملاً قد يكون مدعاةً للدهش أحياناً

وأصح الأمثلة ما يوجد بين أعجز الحيوانات دفاعاً عن نفسها ، وأخصها ما كانت وسائلها الدفاعية ضعيفة او معدومة كلية . وهذا يكاد ينطبق على أغلب الحلوقات الصغيرة السباحة ، في البحار ، وصغار كثير من السمك ، إذ هي شفافة اللون فتختفي في الماء اختفاء تاماً . ومنها صغار سمك الحيات « الحنكليس » فهي شريطية الشكل زجاجية اللون

وجميع السمك تقريباً ، وطائفة من الحيوانات التي لا سلاح لها للدفاع عن كيانها ، سوى الطيران ، ذات ظهور ضاربة الى الزرقة ، كي تصعب رؤيتها تحت سطح المياه . أما الأنواع التي تعيش قريبة من الشاطئ وهي شقائق النعمان والديدان فتكون طينية اللون حينما تنزع منها قرونها « شواربها أو ملامسها » والحشرات التي تدب على الارض ، وما يكبرها من الحيوانات التي تعيش في الخلاء ، مثل الضفادع السامة ذات القرون ، تكون ألوانها مثل التربة او الرمل المحيط بها فتعذر رؤيتها . وهذا ينطبق انطباقاً صحيحاً على أنواع الحشرات التي تأوي الى أوراق الأشجار والشجيرات او الى الحشيش وتتغذى بها ، حيث تختلط بمجلودها الأخضر ، او الخضرة الخجزة فلا تتسنى رؤية هائيك الحشرات والحيوانات إلا اذا نرعت من يئسها الطبيعية وتشتد في بعض الحيوانات الصغيرة غريزة التخفي في أراضي الحراج ، فيستطاع التقاطها منها .

حيث توجد

وهذا يوضح لنا مسألة خطيرة وهي إن الحيوان الموقى لا يلحقه خطر عظيم في أكثر الأحيان ، متى كان نشيطاً بقطاً . ويشند اقتنار هذا الحيوان الى السلامة التي يكتسبها من لونه حينما يضطر الى الراحة او النوم او العناية بصغاره . ومن ثمة يكون التلوين الواقي ، أنفع للطيور . وهذا يفسر لنا سبب بساطة ريش أنثى كثير من أنواع الطيور وزخرفة ريش ذكورها . ومثال ذلك طائر الدج الاميركي ^(١) angar bird وزميله الشرشير grosbeaks ^(٢) اللذان يقوم ريشهما الفاخر بصونهما لدرجة ما صوناً جيداً . فاذا تهددهما أي خطر لا يعوتهما ريشهما عن القتال والهرب حينما شاهدا ، أما أمهات تلك الطيور فتلبث جاثمة في أوكارها دائماً محافظة عليها حيث تمكن مشاهدتها سرياً . ولو كانت تلك الأمهات جذابة الألوان لأستطاعت بعض السنابير الجواله أو الطيور الجارحة الانقضاض عليها ، فما أبدع حكمة الله تعالى وما أعظم رأفته بمخلوقاته الضعيفة التي علمت الانسان ما لم يعلم

وهذا مما يجعلنا نردد دائماً قولنا الذي جعلناه منذ بضع سنين عنواناً لمقال سابق في مقتطف فبراير سنة ١٩٣٤ وهو « الطبيعة رائد المخترعين »

(١) أنواع من الطيور الاميركية من فصيلة الدج ذي الريش البديع اللون (٢) أنواع من الطيور الصغيرة ذات المناقير الكبيرة القوية (والخبر اليقين عند حضرة صاحب السعادة مملوف باشا مؤلف معجم الحيوان)

الأدب الفرويدي

Freudian Literature

للدكتور إبراهيم ناجي^(١)

سعداتي وسادتي : يجدر بي قبل أن أتحدث عن « الأدب الفرويدي » أن ألقى نظرة على « النظرية الفرويدية » . لقد مات « سيجموند فرويد » وأصبح لا يتحدث عنه انسان ولا سيما في أيامنا هذه التي يكتوي فيها العالم بنيران الحرب ولقد اقترنت وفاته باعلان الحرب وهو كيهودي كان قد نفي مع المنفيين . كان شيخاً مريضاً وكان ينتظر جزاء حسناً على ما بذله من جهد ونشاط طيلة حياته . وقف مرة في باريس أمام تمثال ضخم منقوش عليه صورة وحش وأخذ يقابل بين صورة ذلك الوحش وبين الجانب غير الانساني في النفس البشرية . ولعل من الغريب أن نعلم انه قد بنى نظريته على « الحب » وتصور بنائها على هذا الأساس مدى حياته الا أنه عاد في النهاية وتصور وجوب بنائها على « البغض » . ان ذلك الرجل المتفائل قد انقلب في أخريات أيامه الى صورة من أقوى صور التشاؤم . ولقد ذهب قبيل وفاته ببضعة أسابيع لزيارة الفيلسوف « برجسون » وكان هذا الفيلسوف الفرنسي الكبير مريضاً . فكانت زيارته له مسلية رائعة . لأن الفيلسوف الفرنسي الكبير والعالم النفساني العظيم قد وفقا الى نتائج واحدة اثناء بحثهما في تلك الزيارة . تلك هي النتائج التي تتعلق بطبيعة الانسانية ومصيرها . فقد اتفقا على أن الجوهر فاسد وان الصندوق مكسوء بالصدأ وانه مهما نضع فيه من جواهر فانها لا تزال من صدأه شيئاً وان كانت تضيف الى الزرقة التي يحتويها . هي لا تفعل شيئاً في فساد اللب ولا تمحو الصدأ الذي يعلو غلاف الصندوق . لم يعيش « فرويد » طويلاً لكي يتحدث عن كيفية نشوء الحياة من « البغض » ولو عاش لكانت أمامه فرصة سانحة ليلمس بنفسه الجحيم الذي يعيش فيه العالم الآن فلننظر كيف تقوم نظريته الأساسية على « الحب » ومتناقضاته وتشعباته . فقد ظن كثيرون

(١) محاضرة باللغة الانكليزية اقيمت بنادي غريجي قسم اللغة الانكليزية لكلية الآداب بالجامعة المصرية

ان «فرويد» هو الذي اكتشف العقل الباطن ولكن العقل الباطن في الواقع عرف منذ زمن بعيد . وان كان قد اتخذ اسماء عديدة . أما فرويد فقد أضاف اللثام عن الغموض الذي لازم وظائفه فحدّد عمله وأقامه على أسس علمية . وهذا لعمرى فضل كبير نمزوه اليه . على انه قبل ان يضطلع «فرويد» بأبحاثه النفسية كانت «السيكولوجية» مرقعة تريعاً فلسفياً أو كانت بحثاً من أبحاث الفلاسفة يضم أشتاتاً مختلفة لا رابطة بينها . واذا ما ظهر في ثانيا تلك الأبحاث نقص كان الفلاسفة يرجعونه الى أسباب وعبارات تنقصها الدقة ويعوزها الاحكام او الى معان تحتاج الى الوضوح . او كانوا يتناولونه بالتطبيق غير المحكم . هذا ما كان قبل فرويد أما بعده فقد تغير الوضع وانما انزى الألفاظ الخاصة بالحب والتأثر والانفعالات وما يتبعها من الاصطلاحات «كالأفكار الثابتة» و«الأمراض العصبية والنفسية» وكذلك عناوين الموضوعات مثل الهستيريا والنورستانيا كانت جميعها مختلطة اختلاطاً مشوهاً بل كانت مطبقة تطبيقاً خاطئاً وكانت مفهومة فهماً سقيماً وهذه كلها قد فهمت الآن فهماً صحيحاً وطبقت تطبيقاً حقيقياً

ويجدر بي الآن ان أخلص معلوماتنا عن نظرية «فرويد»

أولاً : ان فرويد حدّد وظيفة العقل الباطن كما انه بين قوته الهائلة . وهو لم يبتكر فكرة العقل الباطن وانما وضع تصميم بنيانه وأبان وجه مكاتبه وقوته الخفية بل ابان «فرويد» ان العقل الباطن له الشأن كل الشأن في حياتنا وان نشاط العقل الواعي ضئيل الأثر ومن الخير في هذا المقام ان نصف ذلك البنيان . فالعقل الباطن أشبه ما يكون «بمخزن» يحوي ثمن مواد الحياة . هنالك تجد الغرائز والأخلاق الموروثة والصفات السلافية والذاكرة والدكاء والخبرة وبين هؤلاء جميعاً تبثق من الأغوار شجرة مورقة مزهرة تدعوها شجرة «الذات» . ومعظم الشجرة غائص في الظلام مغمور في الماء ولا يرى النور والوعي منها الا أفتانها المرتفعة . أما الغرائز فتساوية في العدد ومتشابهة في الناس جميعاً وتحت بواعثها تتحرك «الذات» وبها تتأثر ولكن لما كانت هذه الغرائز بدائية وغشيمة ولا بد من التحكم فيها فهذه «الذات» تصبح عرضة للانقسام . فجزء منها يعمل عمل «الرقيب» censor وهذا ما ندعوه «الذات العليا» super ego أو الضمير — وهو مركز الشعور بالآثم الذي يقترفه الانسان دون أن يشعر فتحاول رده عنه فهو دائماً برآب الغرائز من ناحية كما يثير من الناحية الأخرى أمام «الذات» ضروباً من النزاع أشبه بالمنازعات التي تقوم بين أفراد الأسرة الواحدة . وهذا النزاع له شأن عظيم ليس بالقياس الى تفهم الأدب الفرويدي فقط بل بالقياس الى تفهمنا أنفسنا أيضاً . ولكي نحلل الحالات العاطفية التي تستولي علينا زمناً طويلاً «Moods» ونفهم تماماً التقلبات العجائية لانقباض النفس أو لانبساطها مما يمكن أن يصل الى درجة الشذوذ ،

يجب ان تقول أن هناك نزاعاً بين الذات وعالم الحقيقة وبين الذات والذات العليا وبينهما وبين الغرائز

ثانياً اعتقد فرويد ان الغريزة الجنسية المنزللة الأولى فدعاها «الطاقة الجنسية» الليبدو Libido ولقد حد تلاميذه من فائدة نظريته بتسمية هذه الطاقة اسماء مختلفة منها قوة الحياة «Life Force» أو «الدافع الحيوي» L'elan vital كما دعاها برجنسون، أو «إرادة القوة» Will to Power كما سماها آخرون. وأعظم مناحي التباين في هذه النظرية أن الحضارة قد حددوها بالسعي المنظم على مدى العصور لتحديد «الغريزة الجنسية» وضبطها والاستفادة منها وهي الغريزة التي تشدد لذتها ولا تبالي العرف أو العادة

وأحدث الآراء يؤيد وجود ثلاث غرائز أخرى أقوى من الغريزة الجنسية وهي البغض والتعدي والتعدي وهي تسبب بتوترها جميع الاضطرابات العقلية في العالم. وفي الحق تجد أن مهمة الحضارة هي التحكم في دوافع التعدي هذه والسيطرة عليها. اما الحب فأمره متروك لنفسه فالحضارة إذن هي إخضاع الغرائز سواء كانت تصدر عن الحب أو البغض

ثالثاً تعتمد نظرية فرويد على الصراع وتوصف بالدينامية أي الدافعة أو المنطوية على قوة التحريك وقد رأينا أن هناك العالم الداخلي بصراعه الشديد ومراقبه الأعلى وتوتره الدائم ووحشه الضاري المقيد الذي يراقب مراقبة دقيقة. ثم هناك العالم الخارجي الذي نسميه عادة عالم الحقيقة والواقع. وتعرف الحياة تبعاً لفرويد بأنها التفاعل المتبادل بين الحقيقة والنفس. فاذا كان هذا التفاعل منتظماً والتبادل بين العالمين متكافئاً اعتبر الشخص سويًا normal والواقع إننا نعتبر أسوياء، أو غير أسوياء تبعاً لما انفصل اليه من مقدرة على التصرف في عالم الحقيقة فاذا عشنا في عالم خاص بنا وحدنا كنا «داخليين» أو «باطنيين» Introverts أو منطوين على أنفسنا وإذا كنا على صلة بعالم الحقيقة أصبحنا «خارجيين» Extrovert فالشعراء والمفكرون والفلاسفة كلهم باطنيون أما العلماء والقادة فمن الخارجيين

نخط الحب أو طبيعته الجنسية يعتبر من المنزللة عند بعض الكتاب الفرويديين بحيث يصبح فكرة ثابتة. وزعيم هذه المدرسة الروائي «لورنس» ولكنه يضيف الى ذلك شيئاً آخر وهو انه يحاول ان يثبت في جميع مؤلفاته ان الحياة ان هي الا رد فعل بيولوجي من الكائن بالنسبة لبيئته. وقد صورت «فرجينيا»^(١) وولف «الانسانية كأنها اخيلة وأشباح تتحرك في جو خاص تحجي.

(١) فرجينيا وولف كاتبة انجليزية شهيرة ابتدعت ضرباً عجيباً من القصص خالياً من العقد والمفاجآت والحبكة الروائية والنهاية المعتادة فكان أبطالها طيوف وظلال يتحركون على ستار وبروجور وبيجئون، كما يريدون الحياة لا كما يريدون المؤلف...!

فيه فليس في رواياتها قصة محبوبة ولكنها صور اشخاص ترك في جوهر معين ذلك رأي فرويد وتنتاج مدرسته بالنسبة للادب وهو يخلص في الصراع الأبدي في النفوس التي بلغ فيها التوتر مبلغاً كبيراً وبعبارة أخرى النفوس التي فقدت شخصيتها يروى عن «بول فاليري» الشاعر الفرنسي العظيم انه بدأ حياته كشاعر باطني وان عينيه كانتا بالفعل تلتقيان كأنه ينظر الى داخل نفسه. ثم لما بدأ ينظر الى العالم أخذت عيناه في الانفراج تدريجاً واتخذتا شكلاً يتفق وآراءه الخارجية وبعبارة موجزة فقد يكون الناس باطنيين او خارجيين تبعاً لعلاقتهم بالحقيقة والواقع

ومن أهم اجزاء النظرية الفرويدية الجزء المتعلق بالطفولة فالطفل صورة مصغرة من الرجل الكامل النمو ولا نستطيع أبداً ان نفصل انفسنا عن صلاتها بالماضي. فأحسن الشعر وأجوده ما كان يعيش على الماضي وخير القصص ما كان غنياً بالذكريات القديمة. وقد يئس رسكن ان اشهر المصورين يحمل في نفسه جرثومة طفولته ويثبته الأولى ووطنه الأول فاذا ما اراد ان يصبح «اجنبياً» عن ذاته الأصيلة فانه يخفق عادة. ومن أهم مميزات الخصائص النفسية في الطفولة خيال الطفل

قد يستطيع الطفل ان ينشئ قصة وينسجها ويصقلها ويبدو ان هذا الخيال فطري الى حد بعيد ولكنه خاصة انسانية موروثه تبلغ حداً كبيراً من القوة. وقد بدأت آداب الأمم جميعاً اثرأ من نسج الخيال فكانت في البدء وصفاً بسيطاً تتسلسل فيه الحوادث بشكل طبيعي او غير طبيعي بغير محاولة ما للتحليل او التعمق الفلسفي. فاذا ما تمت الحضارة ظهر التحليل النفسي او السيكلوجي وظهرت القصة العلمية والمعقدة ويجدر بنا ان نلاحظ اننا نسفر عن انسانيتنا بتأثير الكحول جرعة جرعة فاذا ما أفقنا أصبحنا من رجال العلم والرياضة واستطعنا الحساب. ولكننا نبدأ في التحدث بعد الجرعة الأولى من الكحول ثم يشتد صخبنا ويزداد حديثنا بعد الجرعة الثانية فاذا ما تناولنا الثالثة والرابعة عدنا الى البربرية والعدوان وهكذا حال الانسان. وبعبارة موجزة يعتبر الخيال أهم خاصية موروثه منذ الطفولة وهو أساس الأدب كله وان تلك التخيلات الطفولية هي زينة الآداب الكبرى فليس آريل Ariel او بك Puck الا لعباً صيانية ولكنها تظهر عظمة شاكسبير

ومن أهم أسس النظرية الفرويدية «الأحلام» في الطفولة نجد أحلام اليقظة Day Dreams وهي القصص الخيالية التي تحدثت عنها. الا أن أحلام الليل لها دلالتها (١) فهي — اي أحلام الليل — تمثل انواع الصراع الخفي والرغبات المكبوتة ولكنها تبدو متبوية نظراً لأنها تعتبر وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس او تظهر في صورة مبالغ فيها

أوصورة رمزية إلا أن قاموس الأحلام معروف جيداً . وتعتبر الحوادث الفرويدية المشهورة أمثلة له . فقد حامت إحدى الفتيات أنها اعتلت أباهما إلى قمة البرج ولكنها سقطت فجأة بين ذراعيه . ذلك ما حامت به ولكنه كان كافياً تماماً لفهم حالتها وعلاجها . وهذا السكت أهم نواحي السيكولوجية الفرويدية فجميعنا نكتب رغائبنا ولا سيما حين تكون الرغبة قوية جداً يتعسر إرضاؤها وإذا كان استعداد الشخص ملائماً والعنصر الوراثي متغلباً بحيث يثير الصراع والاضطراب في الذات فيقسمها أو يفقدها صفاتها الشخصية تماماً

(ب) وترتبط الأحلام ارتباطاً وثيقاً بالطفولة . ومعظم محتويات الأحلام ذكريات الطفولة أو الذكريات الجنسية وغيرها . وعالم الأحلام مهم جداً في الأدب الفرويدي . وفي الحق إن المغالين في التجديد يرون أنه لما كان الأدب وصفاً وتصويراً للحياة وأنه لما كانت الحياة حلاً من الأحلام فينشأ من ذلك أنه ليس هناك بداية أو نهاية ولا هناك ارتباط أو تسلسل منطقي في الحوادث . وعلى ذلك يجب أن يكون الأدب أشبه بالأحلام أي أنه يجب أن يكون رمزياً مشتتاً لا ترتبط فيه الحوادث . وليس له بداية ولا نهاية ولا تسلسل وإنما هو نظرة خاطفة كما لو كنت تنظر من طائرة محلقة . وزعيم هذه المدرسة هو « جيمس جويس » (١)

ومن أهم نواحي مذهب « فرويد » خط الحب الشهير الذي يجب علينا جميعاً أن نتبعه فهو يكون في البداية متكرراً في الذات، ثم يصبح متكرراً في الأبوين، ثم في الجماعة، ثم في الأفراد من نفس الجنس، ثم في الأفراد من الجنس الآخر . إلا أنه ليس هناك حد فاصل تماماً بينها وأي التواء في هذا الحد الفاصل أو تعطيل يؤدي إلى كارثة نفسية . فهذه الانحرافات تتصل دائماً بالسنوات الخمس الأولى من حياة الطفولة التي تشكل كل سمات هذا الحد فيما بعد

وينقسم الكتاب إلى طوائف مختلفة تقرب أو تبعد عن الشذوذ . فهناك كتاب الأحلام الذين يكتبون من غير ارتباط أو غرض محدود ، وهناك الكتاب الذين تملكهم فكرة الجنس ويندفعون معها إلى حد بعيد، وهناك الكتاب المرضى بأعصابهم فيصورون لنا عالماً شاذاً ليس فيه شيء سليم ، وهناك كتاب البيئة الذين يعلقون اعظم الشأن بالجو الذي نعيش فيه وتتحرك . وأخيراً نجد الكتاب الذين يكتبون عن الهستيريا والرغبات المقيدة

وأغلب أولئك من الكتابات كالسيدة فيسكي باوم التي تصوّر لنا عالماً تعطل نموه وخابت فيه الآمال . ولعلنا بهذا القدر نكون قد وقفت إلى شيء عن الأدب الفرويدي

(١) جيمس جويس زعيم مدرسة أدبية منتشرة انتشاراً كبيراً . وهو رجل له قيمته في الادب العالمي فقد يخالفه الانسان في أسلوب كتابته الذي لا نقط فيه ولا فواصل وبراء مزيجاً عجيباً وخلقاً سخيفاً ولكنه من المفكرين الكبار . وقد استمعني عليّ فهم كتابه « عوليس » بلغة الانكليزية فشرته من باريس وقرأته بالفرنسية

نظام

ديوان الاستخبار في الهند

في عهد المسلمين

للسيد أبو النصر احمد الحسيني الهندي

— ٢ —

أينما في المقال السابق أهم مناصب الادارة ووظائفها. ويظهر لنا من القاء النظر في واجباتها المختلفة ومن تطورها فيما بعد ان اصحاب تلك المناصب والوظائف كانوا يقومون بخدمات هامة لا غنى عنها للحكومة في العالم. فانها كانت تتراوح بين مواصلة البريد الرسمي، وتفتيش الاعمال المالية، واستخبار احوال النظام والفاعلين به، واستنباء حوادث البلاد ثم ابلاغها الى اولي الامر. وما من حكومة قامت وترعرعت في بحوة عن تلك الخدمات

على ان حياة الحكومات والدول رهينة بقدر يقظتها على الدفاع عن حدودها فلم يكن ولاية الامر حينئذ في غفلة عنه، لذلك فأقاليم الحدود كانت موكلة بعنايتهم اكثر من غيرها. ففر «سوانح نويس» — وهو الذي كانت واجباته اوسع من واجبات «وقائع نكار» — كان تلك الأقاليم. ولم يكونوا يختارون لهذا المنصب الا من كان ذا جاه وشرف وكفاية وخبرة. فهو كان يرسل التقارير السرية اسبوعياً عن كل ما يهيم الحكومة مثل غارات الأجانب على الحدود ونيات الحكومات المجاورة لها، والتعدي على الحدود سواء أمن قبل الدول المجاورة كان ذلك أم من اصحاب الأملاك عندها وهلم جرا

أما الأقاليم الأخرى فكانت مقر «وقائع نكار». وهؤلاء مثل مونيتور Moniteur في فرنسا كانوا أوثق الناس لدى الحكومة لجس نبض البلاد واستقصاء احوالها. والبيان الذي كانوا يقدمونه الى الحكومة اسبوعياً كان يسمى «واقعة»

سارت الادارة في طريق التقدم سيراً حثيثاً بمشايعة هؤلاء ولاية الأمر فقطعت شوطاً بعيداً من الرقي بخطى واسعة حتى اتسع نطاقها عما وصفناه آنفاً في عهد الملك المغولي العظيم جلال الدين اكبر^(١) فأصبحت سجللاً رسمياً هاماً لأعمال الحكومة ويومية الملك وحوادث البلاد وسيقت في

(١) اكبر الملك المغول في الهند تولى الامر من سنة ١٥٥٦ الى ١٦٠٦ ميلادية

هذا العهد الزاهر الى ابعد الغايات وقصد بها أقصى المدى الذي يقدر ان يتوخاه أرقى الدول وأحسن النظم . وذلك ما كشف لنا قناعه العالم الجليل « ابو الفضل » وزير الملك المذكور في كتابه النفيس « آئين اكبري » الذي هو دستور الحكومة المغولية حينئذ وسجل نافع لنظام الدولة واحوال البلاد في ذلك الزمن الذهبي ، وهو نظام لم يقدر حاكم من الحكام فيما بعد ان يستغنى عنه في تدبير أمور الحكم في الهند سواء أ كان من الهنود أم من المستعمرين . واليك ترجمة تلك الغاية العليا قال : —

« ان غاية جلالة الملك (بهذه الادارة) ان يقام كل واجب احسن قيام لايزاد ولا ينقص بغير موجب في مصلحة ما ، وان يعزل الخونة ويكرم الأمناء ، وان يشغل الموظفين النشاط المجتهدون بلا خوف ويوقف المقصرون الكثيرون النسيان » (١)

لم تكن اعمال الملك بنفسه بمنزل عن التسجيل في تلك الادارة ، وذلك فانه لما كان الملك حينئذ كالروح في جسم الأمة ، صاحب أمر يستل ونهي يمتنع عنه ، ومدبراً لسياسة الحكومة ومرجعاً لاصلاح الفاسد وقوة لاقامة العدل ، ويداً لاغاثة الملهوف ، كان أولى من غيره طبعاً وأجدر بان يسجل اعماله واقواله ، ويقيد سكونه وحركاته ، ليقندي الأخلاف بعده بمحاسنها ، ويحجبت عن مثالبها . وعليه فالوزير الجليل ابو الفضل قد أضاف اللثام لنا في كتابه « آئين اكبري » عن الحيلة التي كانت تؤخذ ، والدقة التي كانت تلاحظ ، والاستقصاء الذي كان يراعى في تسجيل اعمال الملك اليومية ، قال :

« حفظ الحكومة تاريخها شيء مستحسن بل هو ضروري لكل طبقة من الهيئة الاجتماعية وان كان اقفاء اثره في الزمن القديم ممكناً ولكن اغراضه العليا لم تعرف الا في هذا العهد . فجلالة الملك قد عين خمسة عشر كاتباً من ذوي النشاط والخبرة والحياد (٢) يقوم اثنان منهم بالواجب اليومي بالدور حيث يأتي دور كل منهم بعد خمسة عشر يوماً (٣) واختار بعض الآخرين يصلحون كالاحتياطي يستخدم كل منهم ليوم واحد وذلك اذا لم يأت احد من الخمسة عشر لعارض هام قام احد الاحتياطي مقامه في ذلك اليوم وسماه « كوتل » أي الزائد عن العدد

« واما واجبه فهو ان يكتبوا اوامر جلالة الملك واعماله وما يقدم الى جلالته رؤساء المصالح من التقارير ، وما يأت كل جلالة وما يشرب ، والوقت الذي ينام فيه ويستيقظ ، والآداب المرعية في الديوان الملكي ، والوقت الذي يصرف جلالته في حرمه ، وتشريفه الحفلات الخاصة والعامة ، وسليقة الولائم للصيد والفنص وما يصطاد جلالته من الحيوانات ، وسيره ووقوفه ،

(١) آئين اكبري مجلد ثاني صفحة ٢٥٨ (٢) أي الذين لا يكونون مائلين الى حزب من الاحزاب (٣) فيكون الترتيب حينئذ أن يشتغل في اليوم الاول الكاتب الاول والثاني ، وفي اليوم الثاني : الكاتب الثاني والثالث ، وفي اليوم الثالث الكاتب الثالث والرابع وهلم جرأ

واعماله كقائد روحاني للامة ، والعهود والايامن التي تحلف لجلالته وملاحظة جلالته فيها ، والكتب التي تقرأ لجلالته ، والصدقات التي يتصدق جلالته بها والعطايا التي يعطيها ، والقرى التي يكلف جلالته نفسه بقيامها يومياً وشهرياً^(١) واختيار جلالته الرجال للمناصب وقرى الجيش وتعيين جلالته الرؤساء وجاكيرات^(٢) وجاكيرات سيرغال^(٣) وهبات جلالته النقدية ، وتزويد الضرائب وتنقيصها ، وعقد جلالته المعاهدات والبيوع ، والنذور المقدمة الى جلالته واضدار مراسيمه والأوراق التي يوقعها جلالته ، ووصول التقارير الى جلالته ، وحضور ندما جلالته وذهابهم ، وتعيين المواعيد للحظوة بجلالته ، وتفقد جلالته حرسه الخاص ، واشراف جلالته على الحروب والفنوح ومعاهدات الصلح و وفاة الرجال الشهيدين ، ومشاهدة جلالته لعراك الحيوانات والمراهنة عليها ، و وفاة خيول جلالته ، وتنفيذ عقوبات الاعداء وعفو جلالته ، واحوال الاحتفالات العامة مثل الزواج والولادة . واحوال لعب « چوكان » و « چور » و « نرد » و « شطرنج » وكوشينه وغيرها ، واحوال الحوادث الغير الاعتيادية ، ومحصولات السنة والتقارير عن الحوادث في البلاد^(٤)

كان يصحح سجل يومية الملك هذا أحد رجال البلاط ثم يقدمه الى الملك فاذا وافقه الملك وقع عليه مقدمه الى الملك و « مير عرض » اي تشيريفاتي الملك و « پروانجي » اي حاجب الملك . وحينئذ كان يسمى هذا السجل « يادداشت » اي مذكرة . ثم كانت هذه المذكرة تلخص ويوقع على خلاصتها « وقائع نويس » في البلاط و « رساله دار » اي قائد بلوك الجرس و « مير عرض » اي تشيريفاتي الملك ، و « داروغه » اي مدير الخاصة الملكية . فيسمى حينئذ « تعليقه » وهذه « التعليقه » كان وزراء الدولة يوقعونها ويختمونها

تقدمت الادارة بعد جلال الدين أكبر في عهد خلفائه الذين لم تسلكهم خطتها وبطنتهم عقلتها فسدوا خلتها وأصلحوا فاسدها حيناً بعد حين . فتجد مثلاً في « نرك جهانكري » أي مذكرات الملك نور الدين جهانكري^(٥) أنه حاص شقوقها وألم فتوقها وكذلك من تبعه من ورثة العرش وولاية الأمر حتى أصبحت في عهد الملك محيي الدين عالمكير أورنك زيب^(٦) منتظمة الشمل ومستحقة الجبل ليست بمكان سحيق من أمثالها في العصر الحاضر

(١) إشارة الى الصلوات الخمس وصيام رمضان (٢) وهي اقطاع الاراضي التي كانت تخصص للذين قاموا بخدمات هامة للحكومة خالية عن جميع الضرائب والعوائد ولا يزال هذا الطريق موجوداً في الهند وعلى الاخص في الامارات الاسلامية مثل حيدر آباد وبهوبال (٣) اقطاع الاراضي التي كانت تخصص للاعمال الخيرية خالية من جميع الضرائب والعوائد (٤) آئين أكبري مجلد ثان صفحة ٢٥٩ (٥) تولى الامر من سنة ١٦٠٦ الى ١٦٢٨ ميلادية (٦) تولى الامر من سنة ١٦٥٩ الى ١٧٠٦ ميلادية وهو آخر ملوك المغول الاقوياء . اما الذين تولوا بعده فبدأت بوادر انحطاط الدولة تظهر في عهدهم حتى انهارت في عهد الملك الشاعر « بهادر شاه » تماماً

رحلة في الفضاء

من الأرض الى المريخ

من أدياء فرنسا المشهورين في القرن الماضي جول قرن . وقد كانت المزية التي انصفت بها رواياته الخيال العلمي المتوثب . فكان يبني على بعض حقائق العلم المعروفة في عصره ، صوراً لعجائب علمية ، لا سند لها الا الخيال ولكن كثيراً مما نخبَّله أصبح حقيقة واقعة . وليس هذا بالامر العجيب . فناريخ العلم حافل بذكر المستحيلات التي تحققت . قال العلماء مثلاً ان امواج اللاسلكية لا تدور حول الأرض فأثبت ماركوني بالتجربة أنها تدور حولها ثم استنبطت نظرية لتفسير ذلك . وقيل ان الطيران بالآلة أثقل من الهواء مستحيل . فأثبت لنجلي والاخوان ربط ومن تلاهم ان المستحيل يمكن تحقيقه . وفي كل يوم لنا شاهد ناطق على ذلك بما نسمعه في جونا من هدير المحركات منطلقة في الجو ، كالجن

من الكتب المشهورة التي وضعها جول قرن في اواخر القرن الماضي كتاب عنوانه « من الأرض الى القمر » جعل فيه مطية الراحلين قبلةً تنطلق من مدفع ضخيم قاعدته مدفونة في الأرض وفوقه متجهة الى السماء . فهل تمكنا في هذا العهد من تحقيق حلم جول قرن هذا ؟ كلا . ولكن العلماء في اثناء بحثهم عن الوسائل التي قد تتيح لهم هذا السفر في الفضاء ، الى القمر ، بل الى ما وراء القمر ، استخرجوا حقائق جديدة بالنظر ، فيها مما يعمث على الدهشة ، ومما يحرك الخيال معاً . ولقد بلغ من تقدمهم في دراسة هذا الموضوع أن نشأ علم جديد ، لفظه الأعجمي « استرومتكس » ومعناه « الملاحه الجوية »

فلننظر في العقبة الاولى الكبيرة التي يجب أن تغلب عليها ، حتى تتمكن من الانطلاق في الفضاء خارج جو الأرض . هذه العقبة هي جاذبية الأرض كما تبدو في ثقل الاشياء على سطحها . فلنكن نقول من جاذبية الأرض ، يجب ان تنطلق بقوة وبسرعة معاً ، تغلبان على ثقلنا ونقل الآلة التي نستقلها . ونحن نعلم اننا اذا أخذنا كرة ورمىناها في الفضاء ، فانها تذهب في الجو مسافة تنفق وقوة راميتها ثم تعود الى الأرض . فهي تتحدى فعل الجاذبية في أثناء انطلاقتها هنية ، ثم تضعف الجاذبية تحدتها فتدعن لها وتعود الى الأرض

فهل لدينا آلة قوية نستطيع أن نطلقها بقوة كافية وبسرعة عظيمة فتمكن بقوتها وسرعتها من الانفلات من جو الأرض ومن جذبها فتخرج الى الفضاء بين السيارات أولاً ثم بين النجوم هذا هو السؤال . والرد الأول عليه من الناحية النظرية ، أنه ليس ثمة مانع يمنع ذلك . فنحن اذا طبقنا أحد نوااميس نيوتن عرفنا أننا اذا استطعنا ان ندفع كرة مثلاً بسرعة سبعة أميال في الثانية ، تمكنا من التغلب على جاذبية الأرض . وأسرع رصاصة لا تزيد سرعة انطلاقتها على نصف ميل في الثانية أو أكثر قليلاً . أي ان الجهاز الذي نستقله للانفلات من جذب الأرض يجب ان تزيد سرعته على سرعة الرصاصة من اثني عشر ضعفاً الى أربعة عشر ضعفاً فهل في الامكان بلوغ هذه السرعة بوسيلة من الوسائل ؟

أطلق بندقية تشعر بمؤخرها يصدم كنفك عند انطلاقتها . وكذلك في الصاروخ المستعمل في الحفلات النارية الكبيرة ينطلق الغاز من مؤخر الصاروخ عند انفجاره فيندفع الصاروخ الى الأمام او الى فوق وفقاً لاجزاء رأسه . فالمهندس يدعو الصاروخ « آلة رد فعل » . والعالم الطبيعي يسلم بأن مبدأ الصاروخ هو المبدأ الوحيد لصنع جهاز يصلح لريادة الفضاء وقد يظن لأول وهلة ان مبدأ استعمال الصاروخ لملاحظة الفضاء اكتشاف علمي جديد ، ولكن جول فرن نفسه قال ان ما أوحى اليه بما ذكر في كتابه ، رواية وضعها أحد الأدباء ووصف فيها سفينة تسير بفعل الصواريخ من كندا الجديدة الى القمر . وليس بالغير ان يكون نيوتن ، صاحب ذلك العقل العلمي الجبار ، قد أشار الى امكان استعمال الصاروخ في ملاحظة الفضاء او ريادته . وفي عصرنا نجد غير كاتب واحد من كتّاب الروايات ، خاض رحاب الجو بواسطة الصواريخ ، معتمداً في ذلك على خياله . ثم نشأ علم « الملاحظة الجوية » الذي أشرنا اليه ، وفي مختلف البلدان الآن طوائف من المهندسين والعلماء يفتنون بهذا البحث عناية عملية

ولعل في مقدمة هؤلاء علماً أميركياً يدعى جودرد ، وهو أستاذ للطبيعة في جامعة كلارك الأميركية . وقد تدرّج الاستاذ جودرد الى بحث هذا الموضوع من عنايته بموضوعات علمية أخرى غرضها دراسة حالات الجو في طبقاته العليا . فاستعمل أولاً باروداً تجارياً خالياً من الدخان ، فبلغت سرعة السفينة عند انطلاقتها ٨ آلاف قدم في الثانية . ثم زاد هذه السرعة الى ١٢ الف قدم وهي تفوق سرعة الرصاصة نحو أربعة اضعاف . ولكنها مع ذلك لا تكفي للانفلات من جذب الأرض . ولذلك جعل يبحث عن مادة متفجرة أخرى غير البارود . فاستعمل الغازات السائلة لهذا الغرض ، فهو يعتقد ان غازاً مركباً من إيدروجين وأوكسجين يحتوي بعد إسالته على القوة الكافية عند تفجيره لاطلاق السفينة او القذيفة بالسرعة اللازمة

هذا هو الأساس العلمي لهذه الرحلة الشائقة . فلنتحول من العلم المحض الى العلم مقروناً بالخيال . ولنفرض أننا صنعنا السفينة ، متصفة بالصفات اللازمة لرحلتها هذه وهي الاستقرار

بحيث يبقى مقدمها مسدداً الى الجهة التي نبغيها ، والراحة بحيث يكون راكب هذه السفينة في جو كالجو الذي يحيط به على الأرض من حيث الضغط والتنفس والتدفئة والتبريد لنفرض أن كل هذا قد تمّ وأتينا بدأنا الرحلة الى المريخ ، وهو أحد الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس ويبعد عنا عندما يكون على أقربيه إلينا أكثر من ٣٠ مليون ميل هنا يقترح أحد الباحثين الألمان أن نجعل القمر محطة الأولى . نزل عليه بعد الانفلات من جذب الأرض لنتناول منه المادة الدافعة اللازمة للسفينة في مرحلتها التالية . وتكون هذه المحطة ، على مثال محطات البنزين التي تنفّسها الشركات المختلفة عندنا ، أو محطات الفحم في الثغور التجارية المختلفة . فبعد أن تجدّد سفينتنا وقودها في محطة القمر ، تستأنف سيرها الى المريخ . ولكنها لا يجب أن تطير من القمر بسرعة سبعة أميال في الثانية ، كطيرانها من سطح الأرض ، لأن قوة الجذب على سطح القمر أقلّ جداً من قوة الجذب على سطح الأرض . فهو أصغر كتلة وإذن فهو أقلّ جذباً .

ولكن هناك صعوبة أخرى تتعلق بالقمر . وهي ان القمر يبقى أحد وجهيه دائماً متجهاً الى الشمس والآخر يبقى دائماً مشيحاً عنها ، وإذن فأحد وجهيه حار لا انصباب الحرارة عليه والآخر بارد جداً ، لاحتجاب اشعة الشمس عنه . ولذلك يقترح المهندسون — مهندسو الملاحة الجوية — ان تصنع ملابس خاصة ، تقينا عند الوصول الى القمر ، الحر الشديد او البرد الشديد فاذا تغلب هؤلاء الباحثون على هذه العقبات وما كان من قبيلها ، صار في الامكان ان نذهب في رحلة الى القمر ، في الوقت الذي تستغرقه الرحلة من القاهرة الى بيروت

ثم هناك صعوبة أخرى . نحن على سطح القمر وزيد السفر الى المريخ . فهل يكفي ان نسدّد مقدّم السفينة الى المريخ ، فننطلق في الفضاء حتى نصل اليه ؟ كلا . ولماذا ؟ لأن المريخ شأنه شأن الكواكب السيارة المختلفة ، سائر في فلكه بسرعة عظيمة . والمريخ يبعد عنا عندما يكون على أقربيه إلينا ٣٠ مليون ميل . فاذا سرنا اليه بسرعة ١٠ أميال في الثانية استغرقت الرحلة اليه نحو شهر أو أكثر . ولكنه يكون قد انتقل في خلال هذا الشهر من موقعه الذي كان فيه عندما بدأنا الرحلة الى موقع آخر يبعد عن الأول كثيراً

وإذن فسفر السفينة وتسديدها يجب ان يكونا خاضعين لحسابات الرياضيين والفلكيين الدقيقة . وفي هذه لا بد من أن نراعي المبدأ الذي يراعيه الصياد عندما يسدّد بندقيته الى طائر ما . فانه لا يسددها تماماً الى عصفور طائر بل الى نقطة يعرف بحسب تجربته وخبرته ان العصفور بالغا فاذا بلغها كان الرش قد بلغها كذلك فيصاب العصفور في المقتل

وكذلك في حساب سفينتنا والمريخ . فلاجسام السماوية تسير في خطوط منحنية ، معروفة

للعلماء من ثقل الجرم وسرعته ، ولذلك يرسم للسفينة السائرة الى المريخ ، نهج معين تسير فيه ، حتى تلتقي بالمريخ عند نقطة معينة فتزول على سطحه . وقد حسب المهندسان الألمانيان هوهمان وقاليه (وقد قتل أحدهما في سنة ١٩٣١ في تجربة سيارة تنطلق بمبدأ الصاروخ) جميع الخطوط التي يمكن أن تؤدي الى المريخ ، ووضع جدولاً بها ويبين اخصرها وأقصرها .

لقد انطلقت السفينة من الأرض ، وفيها من الوسائل ما يقي الركاب غوائل السرعة ويكفل لهم جواً طبيعياً يتنفسون فيه ، ووصلت الى القمر ، فخطت عليه ثم انطلقت منه الى المريخ فوصلته كذلك . ولكن المريخ له جو . والبحث الفلكي أثبت أن في هذا الجو عنصر الأوكسجين عامل الاحتراق . فإذا تفعل السفينة وقد وصلت الى المريخ . كيف تنزل على سطحه ؟ أنها اذا اخترقت جوه بسرعتها العظيمة ، حدث الاحتكاك والفرك ، فترتفع الحرارة فيساعد الأوكسجين على الاحتراق ، على نحو ما يحدث للشهب التي تحترق جو الأرض . فهي على ما يعلم القراء أجسام صغيرة غير مضيئة ، فاذا دخلت جو الأرض بلغ من احتكاكها بالهواء ما يرفع حرارتها ، فتحترق لوجود الأوكسجين فنراها مضيئة ، في خطوط من نور

ومع تقدم العلماء بحل لكل مشكلة من هذه المشكلات العظيمة التي تعترضهم في مسألة الملاحة الجوية ، لا يزالون حائرين أمام هذه المشكلة . ولكن اذا كانت السفينة لا تستطيع أن تنزل على سطح المريخ خشية الاحتراق ، فكيف تستطيع أن تعود الى الأرض ، وتحترق جوها وتبلغ سطحها بغير أن تحترق ؟ في الاجابة عن هذين السؤالين ، أو في السعي الى حل هذه المعضلة ، من ناحية المريخ ومن ناحية الأرض ، نجدنا أمام مقترحات مختلفة . فقد اقترح بعضهم استعمال فرامل تخفض سرعة السفينة . وقال آخرون باستعمال مظلات واقية أو هابطات (باراشوت) . ولكن الاعتراض على الفرامل أنها مهما تبلغ قوتها لا تستطيع أن تكبح جماح قذيفة منطلقة بسرعة سبعة أميال في الثانية أو عشرة أميال . والمظلات لا تقل ضعفاً في ابطاء سرعة السفينة عن الفرامل . والبعض الآخر يقول باستعمال طيارات من قيل السابحات في الهواء التي تسير بغير محرك ، فتطوى وتوضع في السفينة فاذا دخلت السفينة جو الأرض أخذ كل مسافر طائرة منها وتقلد انبوباً يجهزه بالأوكسجين في طبقات الجو العليا حيث يقل الأوكسجين عن الحاجة ، ثم يدخل طيارته ، ويسلم نفسه للقدر ، في عودته من رحلة الى المريخ

في هذا الحديث مزيج من الحقيقة والخيال . واذا كانت الرحلة في الفضاء متعذرة الآن ، فقد لا تكون متعذرة غداً ، ومع ذلك اذا فرضنا أنها ستبقى متعذرة ، فإن البحث العلمي فيها سيفضي حتماً الى مكتشفات عظيمة الشأن . وهذا تاريخ العلم حافل بالأمثلة على ما جناه العلم من البحث عن أشياء عدت مستحيلة



غزوة بريطانيا

تدرة مشاهير تاريخية

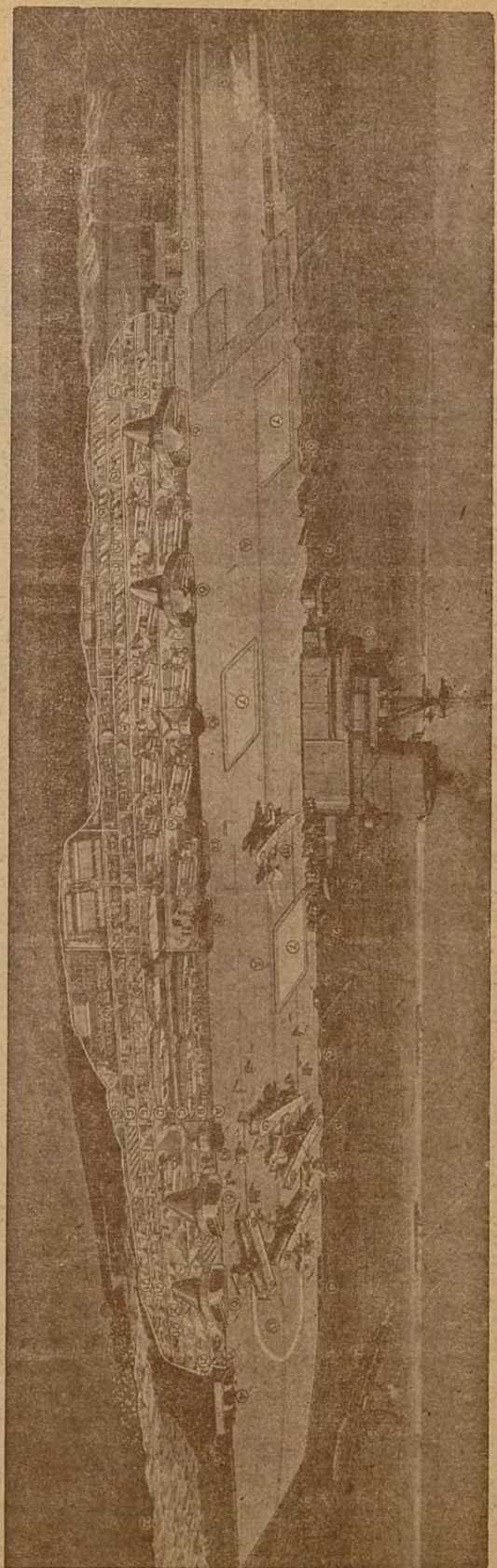
نقل تشمبرلين

١٨٦٩ — ١٩٤٠

الحس العملي

في الخلق الانكليزي

للسر مايلز لامبسون السفير البريطاني



مقطع لحاملة الطائرات «آرك رويال» بين سطحها وطبقاتها الخفية التي تحت السطح حيث تحفظ الطائرات

غزوة بريطانيا

تمثلة مساهمات تاريخية

— ١ —

نحن في سنة ١٥٨٨ ، كان الأسبانيون قد هزموا الترك العثمانيين في البحر المتوسط في معركة ليبانتو البحرية المشهورة سنة ١٥٧١ . وكان العلم الأسباني في تلك السنة يخفق فوق أسبانيا والبرتغال ومملكتي نابولي وصقلية ودوقية ميلانو ومملكة هولندا في أوربا ، وفوق تونس ووهران وجزائر الرأس الأخضر وجزائر كناري في أفريقية . وفوق جزائر الفيليبين وغيرها في بحار الشرق الأقصى . وكانت بلدان أميركية كثيرة في أميركا المتوسطة وأميركا الجنوبية تعترف بزعامة أسبانيا العالمية في السياسة والحرب والثقافة . وكان ذهب المكسيك وبيرو وكنوز الهند تملأ خزائنها فتمكنها من الاحتفاظ بجيش كبير قوي يقوده أمير قواد عصره دوق بارما . وكان في ألمانيا وإيطاليا وبولونيا حركة معاكسة للإصلاح الديني ، المعروف بالبروتستانتية ، وكانت أسبانيا زعيمة الدول الكاثوليكية حينئذ ، فكان أقطاب تلك الحركة الدينية المعاكسة ، أصدقاء لها أو أتباعاً بحكم العقيدة . وكانت هولندا التي قاومت الاحتلال الأسباني مقاومة عنيفة ، قد أخذت عزمها تضعف في وجه الجيش الأسباني المحتل وقدرة قائده دوق بارما وبراعته في تلك السنة لم يكن يقف بين أسبانيا والسيادة العالمية غير إنكلترا — إنكلترا المملكة الزابث ، إنكلترا شكسبير ويكون ودرايك

وإنكلترا في تلك السنة لم تكن الدولة التي يخشى بأسها وتحاذر صولتها . فاسكتلندا كانت ناقمة لنزاع على التاج بين أنصار ملكة اسكتلندا وملكة إنكلترا . وأرلندا كانت مضطربة مشرفة على التمرد أو هي متمردة حقيقة في بعض مناطقها . ولم يكن لها ممتلكات غنية قوية وراء البحار تستمد منها القوة والعون . ولم يكن لها سيادة بحرية معترف بها ، فلماذا لا تقهر إنكلترا ويدك هذا الحائل القائم بين الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا والسيادة العالمية ؟

وكان عند الملك فيليب الثاني ما يحمله على الاعتقاد ، بأن جهداً عسكرياً كبيراً تؤيده جميع الموارد العسكرية والمالية التي رهن يده ، يمكنه من إخضاع تلك الجزيرة . ورسخ في ذهنه أن سفائن أسطوله البحري وزهرة مشاته تكون قوة لا تقهر . فإذا غلبت بريطانيا على أمرها ، وسقطت الزابث ، إبنة هنري الثامن الذي فصل إنكلترا عن الكنيسة الكاثوليكية ، تم للملك فيليب الثاني ، سيادة دينوية عالمية ، في ظل سيادة دينية عالمية ، هو زعيمها الديني

تلك كانت البواعث الأصلية . وهي لا تختلف في أصولها عن البواعث التي حملت نبليون

مستهل القرن التاسع عشر ، وتحمل هتار الآن ، على الرغبة في إخضاع بريطانيا ، وإن اختلفت القوالب التي تفرع فيها هذه البواعث وتباينت أساليب الكفاح . فالسيادة العالمية كانت الهدف البعيد في الحالات الثلاث ، وانكلترا حائل دون تحقيقها

ومضت سنة والتأهب الاسباني قائم على قدم وساق ، لاعداد حملة تغزو تلك الجزيرة العنيدة . وكان هذا التأهب قائماً في وقت واحد في اسبانيا والبرتغال ، قيامه في جميع ثغور السواحل الشمالية الغربية الخاضعة لاسبانيا ، الممتدة من سواحل شبه جزيرة جنتلند الى نهاية ما يعرف الآن بسواحل البلجيكي . وأذيع أن هذه الحملة تعد لغزو في آسيا رغبة في التخفي والتضليل ، ولكن الانكليز لم يخذعوا بما روي وذاع

وكان دوق بارما في هولندا يبذل غاية المستطاع . كما فعل نابليون بعده ، وكما يفعل الهر هتار وأعوانه الآن ، لاعداد اساطيل من السفن لنقل جيش كبير مدرب من مرافئ السواحل الهولندية عبر مضيق الماء الذي يفصل تلك السواحل عن سواحل انكلترا . ومن أغرب ما يستوقف النظر ان الأسماء التي يتردد ذكرها في هذه الايام — اوستند ودنكيرك وبولوني وكاليه وغيرها — هي التي ردد ذكرها في اعداد الحملتين السابقتين

ولم يكن للانكليز حينئذ أعوان وحلفاء إلا مخالفة مضطربة مع ملك فرنسي متردد . ولكن بحارة هولندا كانوا في جانب الانكليز . امس واليوم متفقان في ذلك . وكان الاسطول البريطاني يشتمل على ست وثلاثين سفينة من جميع الأنصاف . فلما لاح الخطر المقرب على الأفق ، عزز هذا الاسطول بتسليح السفن التجارية — كما عزز اسطولهم بها في بدء هذه الحرب — فبلغ الاسطول ١٩١ سفينة كان مجموع تقريبها جميعاً ٣١٩٨٥ طناً ، أي اقل من تقريبه بارجة كبيرة واحدة من بوارج يومنا هذا . وكان عدد رجالها ١٧٤٧٢ انضم اليهم نحو ستين سفينة صغيرة من سفن البحارة الهولنديين الذين حاربوا في جانب بريطانيا من ٣٥٢ سنة كما يحارب البحارة الهولنديين اليوم لانقاذ وطنهم من وطأة الفاح . يقابل هذا ان الارمادا الاسبانية وكانت تعرف بوصف الارمادا التي لا تقهر Invincible Armada كان قوامها ١٣٠ سفينة مجموع تقريبها ٥٧٨٦٨ طناً وكان رجالها ٨٠٥٠ من البحارة و١٩١٩٧ من الجنود و٢٠٨٨ من المجذفين . ومجموعهم ٢٩٣٣٥

كانت سفن الاسبانيين أكبر وأعلى ، ومسلحة تسليحاً خفيفاً ، فكانت تصلح للاشتباك والالتحام بين السفن . وكانت سفن الانكليز أصغر ولكن مدافعها أضخم وتجهيزها أيسر ورجالها يعرفون البحار وتياراتها والرياح ومهابها معرفة خبير متمرس وأقلعت الارمادا الاسبانية من مصب نهر التاج بالبرتغال في ٢٠ مايو سنة ١٥٨٨ وهدفها

الأول أن تبسط سيطرتها على بحر المانش ، وهدفها الثاني ، أن تتصل بعد ذلك بجيش دوق بارما في هولندا وما أعده من السفن في دنكيرك وأوستند لنقل الحملة الغازية الى سواحل انكلترا ليس يهمننا من باقي القصة ، أن نفصل أدوار المعركة التي دارت بين الأرمادا وبين الأسطول الانكليزي ولكن حسبنا ان نقول ان الأميرال البريطاني هورد — وكان درايك البطل البحري المشهور أحد ضباطه الكبار — لم يكذب بلحج السفن الاسبانية متجهة الى كاليه ودنكيرك ، متهادية في بحر المانش ، تدفعها ريح جنوبية غربية ، حتى هجم على مؤخرتها . ومع أن السفن الانكليزية كانت أصغر من السفن الاسبانية ، إلا أن مفاعها كانت أضخم وأقوى وتحريكها أيسر وأسهل فاستعان الانكليز باتجاه الريح وحركة الماء ، وتولوا زمام ادارة المعركة من بدنها ، فكانوا يختارون المواقع التي تلائمهم لمهاجمة سفن أعدائهم ، وأبوا أن يشتبكوا مع السفن الاسبانية ويلتحموا بها ، لتفوق الاسبانيين في عدد الرجال ، ولأن جدران السفن الاسبانية كانت أعلى من جدران السفن الانكليزية ، فالصعود اليها أصعب على الانكليز ، والنزول الى السفن الانكليزية أيسر على الاسبانيين . ولذلك فضل الانكليز مهاجمة السفن الاسبانية مفردة أو في فصائل صغيرة ففتكوا بها فتكاً ذريعاً وأسروا سفينة الأميرال بعد ما عطلوها

ودامت هذه المرحلة من المعركة سبعة أيام ، لجأت بعدها سفن الأرمادا الى كاليه ، وكان جانب منها مهشماً ولكنها لم تكن قد قهرت بعد . وكان الهولنديون في بلادهم قد شغلوا دوق بارما وجيوشه فلم تقم الحملة المعدة للغزو من مرافئها

وجدد الانكليز الهجوم على السفن الالاجئة الى كاليه ، فوجهوا اليها ثمانى سفن نارية ، فاضطرب الأسبانيون ورفعوا المراسي وخرجوا من المرفأ وتجمعوا بعد جهد أمام جزاغلين على الساحل فأمر الأميرال البريطاني أسطوله كله بالهجوم ، فأغرق من السفن الاسبانية ما أغرق وقسر الباقي على الخروج الى البحر ، ونفج واجتاز دنكيرك بغير أن يلبث غندها . وكانت دنكيرك آخر موقع متفق عليه للاجتماع بالحملة التي أعدها دوق بارما . ومضت السفن الاسبانية شمالاً في البحر الشمالي ، والانكليز يتعقبونها ، فلما بلغت سواحل اسكتلندا عطفت غرباً فدمرتها العواصف على تلك السواحل الصخرية الجافية

٢ —

هذا هو المشهد التاريخي الأول . أما المشهد الثاني فهو مشهد الحملة النبوليونية نحن في سنة ١٨٠٥ وفي شهر أغسطس . ونبوليون في معسكره في بولون المطلة على بحر المانش ، يروح ويحيى برماً يلوح عليه أن صبره أخذ ينفد ، ثم يلتفت حيناً بعد حين الى وزير بحريته الأميرال دكريه ويقول له أين فيلنوف ؟ كان نبوليون قد أنشأ الامبراطورية الأولى ، وضم تحت برديه فيها فرنسا القديمة وفرنسا

الجديدة ، أي أنه جمع بين المبادئ الثورية الجديدة ، والمبادئ الملكية القديمة ، وكان هناك ارتياح عام ، لأن الدلائل كانت تدل على أن الرخاء أخذ يعود إلى بلاد فرقتها الثورة وأضعفتها الحروب ، بعدما أنشئت فيها حكومة مستقرة ، واستتب فيها نظام عام ولكن نبوليون كان يدرك أكثر مما يدرك الشعب ، أن الأمر لا يستتب للإمبراطورية ، وإن النظام لا يستقر في البلدان التي فتحها وأخضعها بحمد السيف ، إلا إذا قهر قوة بريطانيا ، لم ينس ذلك وهو مكب على الإصلاح الداخلي ، ولذلك كان فكره أبداً متجهاً شطر البحر ، على سواحل فرنسا الشمالية . وكان يعلم أنه لا يستطيع أن يقهر بريطانيا إلا إذا ناجزها القتال في البحر حيث سرقتها ، ولذلك قال قوله المشهور متمنياً أن يباح له مضيق دوفر وبحر المانش مدى أربع وعشرين ساعة فقط

كانت الدول الأوروبية التي لم يخضعها شيء حلفاً ثالثاً ضده . وكان مقتنعاً بأنه يستطيع أن يهزم جيش هذا الحلف . ولكن انتصاره عليه لا يقنيه ، أكثر مما أغنته انتصاراته السابقة مازال الأسطول البريطاني سليماً ، يشدد عليه الحصار ، ولا يستطيع أن يقلبه بالحصار من البر . والغريب أن كلاً من نبوليون وهتلر أعلنوا حصر بريطانيا من بر القارة وأذاعا إعلانها من مدينة واحدة هي برلين . وكان مصير الأول إلى الجبوت . وكذلك سيكون مصير الثاني لأن البحر لا يحصر من البر . ولذلك عني نبوليون بأعداد أسطول بحري جديد قوي ، وكذلك بأعداد حملة كاملة لغزو بريطانيا . كانت الحملة التي أعدها تشمل ١٣٢ ألفاً من خيرة محاربيه وأشد هم مراساً . منهم ١٠٠ ألف من المشاة و ١٩ ألفاً من الفرسان و ١٣ ألفاً من المدفعية . وكانت السفن المعدة لنقل هذه الحملة ومعداتنا متأهبة وقاعدتها بولون وثلاثة ثغور أخرى مجاورة

ولم يبق إلا أن يتجه الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال فيلنوف إلى برست لمواجهة الأسطول البريطاني بقيادة نلسن أو من يليه من أمراء الأسطول فيشغل الأسطول البريطاني مدى أربع وعشرين ساعة على الأقل تحتاز في خلالها الحملة النيبوليونية المياه الفاصلة بين سواحل فرنسا وسواحل بريطانيا ، وهناك يصبح القتال من النوع الذي تفوق نبوليون فيه ولكن فيلنوف لم يحجى إلى برست بل ذهب إلى قادش في الجنوب . ذلك أن الأميرال لم يكن واثقاً بقدرة أسطوله على الالتحام بالأسطول البريطاني بغير أن يهزمه فادحة ولا بولاء الأسطول الإسباني التام الذي كان يعاونه وهو لا يريد أن يعرض الأسطول الذي بقيادته لهذه الهزيمة فاجتنب الالتحام ، وكانه لم يفهم غرض نبوليون . فنبوليون لم يكن يطلب منه نصراً بحرياً ، وإنما كان يطلب منه أن يشغل الأسطول البريطاني ، ولو مني في هذه المعركة بأعظم الهزائم وظل نبوليون في بولون ، معلقاً بين الرجاء والاحفاق ، حتى قارب شهر اغسطس من

الانتهاء ، وبدأ جو الخريف برياحه الهوج تضرب سطح الماء فتجمل انتقال الحملة عملاً محفوفاً بالخطر . وذراً قرن الثورة عليه في بعض بلدان أوروبا فاستدبر المانش وفي قلبه حسرة ، وواجه خصومه على بر القارة فأحرز انتصارات عسكرية ولكنها لم تغنه كما كان يعلم . وكذلك قدر الحملة نبوليون على بريطانيا ان لا تقوم . بل قدر ان يكون الفصل التالي من النزاع امام الطرف الآخر حيث فاز نلسن بنصر حاسم على الاساطيل الفرنسية والاسبانية . فكان ذلك بدء النهاية ، مع ان النهاية لم تأت الا في واترلو بعد نحو عشر سنوات

— ٣ —

أما المشهد الثالث ففي البقعة نفسها على سواحل مضيق دوفر وبحر المانش ، ولكن في سنة ١٩٤٠ بدلاً من ١٥٨٨ أو ١٨٠٥ . لقد أحرز هتلر كما أحرز نبوليون انتصارات عسكرية كبيرة حاسمة على البر الاوروبي . ولكنه مدرك كما ادرك فيليب الثاني ونبوليون من قبل ، ان دون السيادة العالمية ، واستقرار النظام في البلدان التي أخضعها ، تلك الجزائر التي يقطنها شعب باسل لا يعرف الجزع يسود البحار وهو في طريقه الى سيادة الجو . وها هو ذا المارشال جورنج واقف حيث وقف دوق بارما ونبوليون من قبل . السفن متجمعة في الثغور على طول الساحل من همبرج الى الحدود الاسبانية . وتضاف اليها ثغور زوج . ووراء هذا الحشد من السفن عشرات الالوف من الجند ينتظرون الامر بالسير

ولكن هذه الحملة ، المنظمة بدقة واحكام ، بين امرين على ما نعتقد ، إما ان يكون مصيرها مصير الارمادا الاسبانية ، واما ان لا تقوم مطلقاً كحملة نبوليون . ذلك بأن الأسطول البريطاني المتفوق واقف لها بالمرصاد . وقاذفات السلاح الجوي البريطاني ، توالياها قذفاً ليل نهار . فتغرق السفن وتدمر الارصفة وتشعل النيران في مخازن العتاد ومستودعات البترول . وجميع الخبراء الحربيين مجمعون ، من روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية ، على أن لا أمل لهذه الحملة في النجاح الا اذا انتزع السلاح الجوي الألماني لواء سيادة الجو من سلاح الطيران البريطاني . فاذا لم يفعل فالحملة مقضي عليها بالحبوط . وليس في المعركة الجوية الدائرة الآن دليل واحد على ان فوز الالمانيين بهذه السيادة الجوية قريب او محتمل ، فخسارتهم في الطائرات ورجال الطيران المدربين فادحة ، وضربهم الدور والكنائس والمناخف والمخازن بغير تمييز لا يزيلهم مزية جريئة تذكر . فالارهاب لا يكسبهم هذه المعركة . وقد بدأ الآن — وهذا الفصل من حديث أذيع من محطة الاذاعة للحكومة المصرية في ١٩ سبتمبر — جو الخريف المضطرب يغلب على تلك البقاع ، رياح هوج وبحار طالية متلاطمة الأمواج وغيم متلبد وضباب كثيف . فاذا غامروا فمسير الارمادا امامهم وإذا امتنعوا فقد فانت الفرصة والمرجح الذي في مرتبة اليقين انها لا تعود

نقيل تشمبرلين

١٨٦٩ - ١٩٤٠

بذل غاية ما يستطيعه انسان من جهد، وتعرض لأشد ما يتعرض له سياسي من نقد، لكي يصون سلام العالم. نخاب أملة وحبط سعية، وانتهكت الوعود التي قطعت له، وتوالى الاعتداء فكان لا مفر من حرب يعلم انها مدمرة ولكنه أقبل عليها بالعزم الصلب الذي عرف به في جميع مراحل حياته، وأوفى على ختامها وهو يتعنى ان تتاح له فسحة من العيش ليرى هزيمة الشر. « شر القوة الفاشية والحنت باليهود والظلم والاستبداد والاضطهاد » على ما قال في بيانه الموجه الى الأمة البريطانية صباح الأحد ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ثم في بيانه في مجلس النواب ظهر اليوم نفسه. ولكن القدر اراد له غير ذلك فصح ما خشي هو ان يصح، إذ شبه نفسه في خطبة خطبها في ربيع سنة ١٩٣٩ بالوزير « بت » الصغير فقال انه كان مهتماً كالوزير « بت » بشؤون الاصلاح الداخلي ولكنه مضطر مثله الى الانصراف عنها الى شؤون السياسة الخارجية والحرب، ويرجو ألا يكون مصيرها واحداً لان « بت » توفي قبلما شهد ظفر بريطانيا في الحروب النبوليونية

كان جوزيف تشمبرلين والد نقيل من كبار رجال الاعمال في مدينة برمنغهام الانكليزية فلما خاض ميدان السياسة ظهر فيه على الاقران لما اتصف به من الألمعية وثاقب الرأي وقوة المعارضة فتنبأوا له في اواخر القرن الماضي بأنه بالغ أعلى مناصب الدولة — رئاسة الوزارة — ولكنه قصر دونه. ولولا مسألة استقلال ايرلندا الذاتي ومعارضته فيه لحلف غلادستون على الغالب زعيماً للأحرار ورئيساً للوزارة. ولولا دعوته الى الحماية التجارية والتفضيل الامبراطوري بعد ذلك لحلف بلفور في زعامة المحافظين. وكانه قرر ان يحقق في كبر ابنه ما عجز عن تحقيقه في نفسه بكرة اوستن لذلك فوجهه الى مدرسة رجي فالى جامعة كمبرج ثم الى مدرسة العلوم السياسية بباريس وبعدها الى ألمانيا. وانتخب اوستن عضواً في مجلس النواب وهو في التاسعة والعشرين من عمره وتقلب في مناصب الدولة الرفيعة وتقلد أعلاها ومنها وزارة المالية ووزارة الخارجية ولكن تمسكه بأدب السياسة المتواضع عليه في انكلترا حال بينه وبين الرئاسة في حادث لا محل لتفصيله هنا

وعهد جوزيف تشمبرلين الى ابنه الثاني نقيل في إدارة الاعمال فتعلم مسك الدفاتر وذهب الى جزائر بهاما حيث قضى سبع سنوات يحاول ان يزرع السيسال (وهو نوع من العشب يشبه القنب) حيث لا ينمو السيسال فأخفق وعاد الى انكلترا لتولي إدارة أعمال الأسرة في برمنغهام ولكن القدر شاء أن يبايع نقيل المنصب الذي صبا اليه والده وأعد له شقيقه مع انه لم يدخل ميدان السياسة الانكليزية الا وهو في الخمسين من عمره

عني وهو في برمنغهام بمسائل الإصلاح المحلية فانتخب عضواً في مجلسها البلدي ثم محافظاً للمدينة . فأصبح مساكين العمال ونظم شؤون الصحة العامة وأنشأ بنكاً للتوفير . وقد فعل ذلك على الرغم من ان اخوانه المحافظين أتهموه بالاشتراكية وهي تهمة كانت في ذلك الوقت كافية لتسني من لم يكن مثله صلب العزيمة عن المضي في الإصلاح . ودعي الى تقلد منصب في الحكومة في لندن سنة ١٩١٥ — ١٩١٦ فتقلده بضعة أشهر ثم نحلّ عنه لأن الوقت لم يكن ملائماً للسير فيه وفقاً لما يراه وعاد الى برمنغهام

وفي سنة ١٩١٨ رشح نفسه للنيابة ففاز بها وكان في الخمسين من عمره وترقى سريعاً فعين وزيراً للبريد فوزيراً للعالية فترة قصيرة ثم وزيراً للصحة سنة ١٩٢٤ . ولا يزال الرأي الانكليزي في الدوائر المطلعة مجمعاً على أنه أعظم وزير تقلد وزارة الصحة في بريطانيا . ذلك بأن خبرته في منصب المحافظة لمدينة برمنغهام وعنايته بشؤون مساكين العمال والصحة العمومية فيها أهله في معالجة المشكلات نفسها في نطاق أوسع . فقضى خمس سنوات يكافح في سبيل تحسين مساكين العمال وفاز باقرار « قانون تشمبرلن لبناء المنازل » وأشرف بمقتضاه على بناء مليون منزل جديد للعمال يدخلها نور الشمس ويتخللها الهواء النقي وتتوافر فيها أسباب النظافة والدفء . ومن المأثور عنه أنه قال : « لا بد من إصلاح الحال قبل خروجي من هذه الوزارة » . ووجه عناية خاصة الى الأمهات النفساوات وخفض معدل الموت بينهما لأن والدته توفيت نقساء على أثر وضعه فلما عصفت رياح الأزمة الاقتصادية العالمية ببريطانيا سنة ١٩٣١ والى مكدونلد الوزارة القومية الأولى أختير نقيب تشمبرلين وزيراً للعالية وظل محتفظاً بهذا المنصب الى أن خلفه المستر بولدوين رئيساً للوزارة في مايو سنة ١٩٣٧ على أثر تتويج الملك جورج السادس في وزارة المالية تجلت أخلاقه . فهو حازم لا يعرف التردد ، منظم لا يرضى التراخي ولا الاضطراب ، منطقي لا تميل به العاطفة ، صريح يأبى المداينة ، محافظ في الشئون المالية لا ينحرف الى المغامرة في تجربة الفطير من المذاهب . كانت الدولة تواجه شبح الافلاس عندما تقلد وزارة المالية سنة ١٩٣١ فوضع يده على الدفة وسير السفينة في بحر متلاطم الأمواج الى بر السلامة والرخاء . وازن الميزانية بعد اضطراب ووفر المال المتاح للاعمال بعد إزوائه في خزائن البنوك واقتصد للدولة عشرات الملايين بعقده أكبر صفقة تحويل مالية في التاريخ إذ خفض الفائدة على الدين العمومي ومن لا يرض هذا الحفض فليقدم سنداته وليأخذ ماله . فما اقبلت سنة ١٩٣٧ حتى كانت بريطانيا على طريق الرخاء . هذه الاعمال رفعت من شأنه في مجلس الوزارة وعززت من نفوذه وبدا يغلب على ظن المتابعين لمشاهد السياسة البريطانية انه الخلف المحتمل للمستر بولدوين بعد انتهاء حفلات التتويج في مايو سنة ١٩٣٧ وكذلك كان

وما كاد يتقلد رئاسة الوزارة حتى اتضح لزملائه فيها ان للرئيس الجديد خطة معينة يريد تنفيذها . وعندما اختار معاونيه في شتى المناصب الوزارية لم ينظر الى المعية فقط بل قدم على ذلك قدرتهم على التعاون معاً في تنفيذ الخطة التي يراها . وقد اضطر آنأً بعد آن أن يتخلى أسفاً عن معاونه هذا الوزير او ذاك فخرج ايدن من الوزارة اولاً (فبراير ١٩٣٨) ثم دف كوبر (أكتوبر ١٩٣٨) ثم هوربليشا (١٩٤٠)

وعما لا ريب فيه أن اسم نفيل تشمبرلين سيبقى ابداً متصلاً بحوادث سبتمبر سنة ١٩٣٨ وطيرانه — لأول مرة في حياته — ثلاث مرات الى المانيا لعله يستطيع ان ينقذ سلام اوربا مما كان يهدده في تلك الأيام العصيبة . وكان مقتنعاً حقاً وصدقاً ان الاتفاق مع الدكتاتوريين مستطاع . ولكنه على ما يلوح لم يكن يصدق ان في العالم حكماً يستطيعون أن يخفوا أنياب الذئب وراء صوف الحمل ! فالناس الذين تعود معاملتهم في ميدان الأعمال وميدان السياسة كانوا لا يخافون وعداً ولا ينكثون عهداً قطعوه . فلم يكن في وسعه ان يتصور ان رئيس دولة يستطيع ان ينكث عهداً قطعاً لرئيس وزراء بريطانيا !

وكان عليه ان يواجه حقيقة أخرى . وهي ان فرنسا مرتبطة بمعاهدة مع تشيكوسلوفاكيا تحم عليها المحاربة معها اذا اعتدت عليها المانيا . وكانت بريطانيا قد تعهدت لفرنسا بأن تحارب معها اذا خاضت حرباً مع المانيا لم تكن فرنسا فيها الدولة المستفزة أو المعتدية . ولكن كان هناك ما يدل على ان فرنسا لم تكن حازمة أمرها حينئذٍ للنهوض بمهدها لتشيكوسلوفاكيا وبضاف الى هذا ان تأهب بريطانيا الحربي لم يكن على أرقاه .

ولا بد لنا في هذا المقام من ان نورد في إيجاز ما يقال في تأييد سياسة ميونخ ونقدها ١ — مهما تكن تشيكوسلوفاكية جمهورية عظيمة الشأن فإنها ليست مما يجدر ان نقيم سوق الحرب من اجلها . الرد على ذلك : — هل بولونيا أجدر منها بذلك ؟

٢ — كانت تشيكوسلوفاكيا غير عادلة في معاملة اقليتها . الرد : — كان في الحكومة التشيكوسلوفاكية وزراء المانيون . واذا قيس حالة الاقلية الالمانية في بلاد السودان بحالة الاقليات العنصرية في بلدان اوربية اخرى تجلّت الامتيازات التي كان المانيو السوديت يتمتعون بها . وماذا صنع اتفاق ميونخ الا أنه جوّل ثمانية ملايين تشيكي الى اقلية مضطهدة حقاً . ولماذا كانت تشيكوسلوفاكيا بحسب جمهورية نجيح فيها النظام الديمقراطي الجمهوري قبل ان تعقدت مشكلتها وارادت جريدة النيوس ان تحل تلك المشكلة على حساب تشيكوسلوفاكيا باقتطاع منطقة السوديت منها مع انها كانت تعلم ان معاملة المانيي السوديت لم تكن الا عذراً واهياً

٣ — كان من المتعذر على بريطانيا وفرنسا مساعدة تشيكوسلوفاكيا مباشرة ، لأنها في قلب

أوروبا ولا وصول إليها . الرد : — خير وسائل الدفاع عن صديق مقتدى عليه هي مهاجمة المعتدي من وراءه . فالحصار البحري وشغل سلاح ألمانيا الجوي ومهاجمة خط سيجفريد قبل تمام انشائه ، جميع هذه الوسائل كانت كافية لمساعدة تشيكوسلوفاكيا اذا اعتدت ألمانيا عليها ، ومن المرجح ان هتلر نفسه لم يكن غافلاً عنها . ثم هل كانت بولندا في سنة ١٩٣٩ أقرب الى بريطانيا وفرنسا من تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨ .

٤ — لو حاربت تشيكوسلوفاكيا اسحققت ؟ الرد : — كان لتشيكوسلوفاكيا خطوط محصنة في مناطق جبلية وجيش مسلح يعد مليوناً ووراءه مصانع سلاح عظيمة (مصانع سكودا) فاجتياح ألمانيا لتشيكوسلوفاكيا إحتياجاً سريعاً في سنة ١٩٣٨ لم يكن أمراً محتملاً من الناحية العسكرية .

٥ — أنقذت تشيكوسلوفاكيا باتفاق ميونخ . الرد : دلت الحوادث على أن الضد هو الواقع .

٦ — كان الشعب البريطاني ممتنعاً عن تأييد تصريح يضمن سلامة تشيكوسلوفاكيا ضماناً ينفذ من تلقاء نفسه اذا اعتدي عليها . الرد : — إذا كان تشمبرلن قد أفضى بتصريح من هذا القبيل فإنه كان ولا ريب ينتقص من منزلته في نفوس الشعب البريطاني . وهل أفضى ضمانه لبولونيا الى مثل هذا الاعتراض ؟ إن الدول الديمقراطية ما تزال قادرة على الاستجابة الى الزعامة الحازمة . وقد تبعته الأمم البريطانية مفتحة العيون الى الحرب تنفيذاً للضمان البولوني .

٧ — لم تكن بريطانيا متأهبة للحرب في سبتمبر ١٩٣٨ . الرد : — الواجب يقضي على كل حكومة ان تكون قدرتها على الدفاع وافية في كل وقت . ثم ألم يخسر الحلفاء خسارة عسكرية عظيمة بتسليم حصون تشيكوسلوفاكيا وتسريح جيشها المسلح وسلاحها الجوي وسقوط مصانع سكودا في أيدي الألمانين ؟ وهل تكفي سنة من التأهب الحربي لتعويض خسارة من هذا القبيل ؟ ومهما يكن من أمر فالسياسة التي جرى عليها تشمبرلن في سبتمبر سنة ١٩٣٨ وانتهت الى اتفاق ميونخ كان لها أصل في طبيعته وهو مقت الحرب والنفور منها أو أصل في الواقع الملموس وهو خطر نشوبها حينئذ . وستبقى هذه السياسة موضوعاً للجدال والمناقشة بين مؤيديها وناقديها الى أن تتاح جميع الحقائق للمؤرخ المنصف في المستقبل . ولا ريب في ان تشمبرلن بذل غاية ما يستطيعه انسان لصون السلام في تلك الأيام ففاز فوزاً مؤقتاً لا غير . ولكن مساعييه أظهرت العالم أجمع على حقيقة المقاصد البعيدة التي يقصدها زعماء الوطنية الاشتراكية

فلما ثبت أن لا مفر من الحرب معهم استطاع تشمبرلن ان يتكلم صباح ٣ سبتمبر ١٩٣٩ بلسان أمة متحدة تؤيدها بلدان الامبراطورية وأمم وجماعات في مختلف انحاء العالم . وجميع الذين اشتغلوا معه في أشهر الحرب الأولى من سبتمبر ١٩٣٩ الى مايو ١٩٤٠ — عند ما استقال — يشهدون بأن العزم الصلب الذي تجلّى في مسعاه لصون السلام قبل نشوب الحرب لم يلبس ولم يصف في مواصلتها . وانه لمن أعظم بواعث الأسى أن يقضي قبل أن ينبجج نجر النصر ولكنه رأى تباشيره

الحس العمل

في الخلق البريطاني^(١)

يبي الا انكليزي أعماله على الاختبار. ويأبى أن بعد لها ملاءمة لنظام « ايدولوجي » لم يقنع بأنه نظام عملي تستطيع ممارسته . فاذا واجه معضلة ما اعتمد على ذاكرته — والذاكرة مرجع الاختبار — اكثر من اعتماد على عقله ، بينما الفرنسي يعتمد على العقل في الحالة نفسها اكثر من الاعتماد على الذاكرة . وهذا يعلل لكم لماذا تستطيعون أن تثيروا اهتمام الا انكليزي بمسائلها أساساً أدبي. ذلك بأن أدب النفس هو نتيجة الاختبار . وهو يعلل كذلك لماذا تترك المسائل الفكرية الجردة فائراً فلا تحرّك . فالحرية والإخاء مجرد دين لا يعنيان شيئاً في نظره . وما يستوقف النظر وله مغزاه أن معاملته أقليات معينة في المانيا أثارت من سحق الا انكليز أكثر مما أثاره إلغاء حرية القول والصحافة والنيابة وغيرها من المنشآت التي يعزها الا انكليزي ويتمسك بها . فالانكليز يمتازون بأسلوب ممارستهم لنظام ما لا بالمبادئ التي يمارسونها ، وتوجيه منشاتهم ومعاهدهم لا بطبيعة المنشآت نفسها . أي شعب طاقل يأخذ ما أخذه الا انكليز — نظاماً تعليمياً وقانونياً موروثاً من القرون الوسطى ونظاماً سياسياً بلغ من التعقيد مبلغاً يجعل تطبيقه ، على ما دلت التجارب ، متعذراً إلا على الا انكليز انفسهم ، ثم يعتبرون ما أخذوه هدية نفيسة ؟ ومع ذلك اجرو فأقول : وأي شعب آخر استطاع أن يحجي من منشآت أخرى تفوق هذه المنشآت ، ما جناه الا انكليز منها بحسهم العملي واسلوبهم في ممارستها وانني لأسألكم أن تعيدوا النظر معي في ثلاث نواح من الحياة الانكليزية من حيث صلتها بهذا الحس العملي

اولاً تقليد الأمانة في التجارة . ان الاستقامة التي ما فتئت مبدأ سائداً طبقتنا التجارية منذ ثلاثة قرون ليست أقل ما قدمناه الى الحضارة الغربية ، وهي ناجمة على الاكثر في نظري من الفطنة العملية . فلما جاء « البيورتان » وهم المتمسكون بمبادئ الدين علموا بان الله مع المجتهد وانه يحجزه مثبناً « أن الامانة خير سياسة » أي أنهم علموا ان الاستقامة الاقتصادية تؤدي ثمارها في الدنيا والآخرة . والواقع إنها آتت ثمارها في الدنيا على ما نستطيع ان نحكم . ولكن الا انكليزي وحده يصدق ذلك . فحسه العملي مؤيداً بتعليم المتدينين (البيورتان) وعقيدتهم اقنعه من زمن بعيد بان الاساليب الملتوية لا تجدي وانك لا تستطيع ان تحجي حتى مالك وتعبك جيئاً مستمراً إلا اذا كانت كلمتك صكك وعهدك . وعلى هذا نشأ التقليد العملي المعقول تقليد الاستقامة في الاعمال التجارية

(١) من محاضرة السر مايلز لامبسون السفير البريطاني في مصر عنوانها « نصيب بريطانيا في بناء الحضارة »

ولكن لهذه الصورة وجهها الآخر. فهناك هوة روحية تتعرض نحن الآخذين بتقاليد «البيورتان» للسقوط فيها، وعلى مقدار ما تصف بالحس العملي والكفاءة بزداد خطر تعرضنا لهذا السقوط. فإذا كان الله، كما قال البيورتان في جانب النجاح الاقتصادي، فالشيطان يجب أن يكون ملازماً لمن يخيب وكذلك تصبح الفاقة خطيئة علاوة على أنها مصيبة. وعند ما قال نلسن — وهو مثل بارز على عبقرى عملي — «إن قلة الثروة جريمة لا يستطيع التغلب عليها» كان يعرب عن رأي لم يكن نادراً حينئذ في الدوائر التجارية المحترمة في عصره. ولعل هذا كان الثمن الذي إقتضاه منا املاؤنا قواعدنا التجارية على أوروبا.

أما الناحية الثانية من الحياة الانكليزية التي أجد فيها للحس العملي شأنًا عظيمًا فهي ناحية «الطبقات». فلسنا نجد في بلد آخر المميزات الاجتماعية التي تنطوي في هذه اللفظة وقد بلغت ما بلغت في انكلترا من التصلب وال مرونة في آن واحد. فإذا كانت الطبقة العليا مفصولة فصلاً محكماً عن سائر الشعب، فذلك طبقة مقضي عليها بالانحلال والفناء. أما وقد أحس الانكليز هذه الحقيقة فتراهم يضيفون دائماً إلى طبقتهم الاستقرائية أعضاء جددًا يختارونهم من أصحاب الصناعات وأقطاب القوات الحربية ورجال القانون والسياسة وحتى رجال المسرح. وهذا النظام مزدوج الأخذ والعطاء. فأبناء الأعيان الذين يلون الابن الأكبر يصبحون من العامة فيشقون طريقهم في ميادين الحياة المختلفة. والمختارون من العامة يصبحون من الأعيان. وكذلك تستمد طبقة الأعيان استمداً دائماً قوة جديدة من العناصر القوية في الأمة فتطمع بها، بينما تشمل العامة على الضد من طبقة البورجوى — المتوسطة — في شعوب القارة الأوروبية، على عناصر كثيرة مختصرة متصلة بالاستقرائية. وهذا يعمل لنا قول من قال في تعريف التاريخ الانكليزي — أنه الاستقرائية مفتحة الأبواب

وأخيراً هناك الناحية العملية في الرأي السياسي. فقد عرّف الانكليزي بأنه في صميمه حيوان سياسي. ولكنني لست أفهم لماذا عرف هذا التعريف لأنني لا أعرف شعباً أقل عناية من الانكليز بالنظريات السياسية. ولكن النظريات جميعاً واحدة في نظرهم ما زالت لا تمس شخصيتهم والعامل الوحيد الذي يسيطر عليهم سيطرة عملية هو الفطنة أو الحس العملي السليم Common Sense. وهذا يفسر لنا نزعتهم المحافظة ورغبتهم في الاتفاق الوسط

ولعلنا نستطيع أن نقسم جميع الناس الذين يعنون بالسياسة إلى فريقين. ففريق يرى أعضاءهم أنهم يستطيعون أن ينشئوا نظاماً جديداً للعالم بفعل العقل أي أنهم يؤمنون بالاصطناع. فهؤلاء هم الثوريون الذين ينسون أن منابت الحياة القائمة في الحاضر، غائصة في الماضي البعيد فيرغبون في إفراغ المجتمع في قالب جديد مصطنع بظنونه أمثل وأفضل من القالب الذي أفرغت فيه على مرّ العصور. أما الفريق الآخر فيشمل الذين ينظرون إلى الأشياء على أنها تنمو نمواً ذاتياً ويؤمنون

بأن المجتمع جسم عضوي، وإن فصله عن ماضيه وقطع صلته به يؤذيه وقد يتلفه ويقضي عليه. فالمرء في نظر هؤلاء هو « الماضي » وقد أضيف إليه النمو الذي ينموه كل قرن من الزمان. وألفاظ « التوري » Tory و « الهويج » Whig أو « المحافظ » و « المتطرف » ليست إلا أسماء تخفي وراءها هاتين النظرتين الأصليتين إلى الحياة. اتنا نرى أصول هاتين النظرتين في « جودوين » و « برك ». فعندما نشر « جودوين » من قرن ونصف قرن « عدله السياسي » كان موقفه من المجتمع موقفاً أرستقراطياً في صميمه. فأنكر كل ما سبق. وطالب بمحو كل ما دون على اللوح، لينشئ على هذا اللوح النظيف، شيئاً جديداً لم يجرب من قبل أي إنسان. رغب في أن يقطع سلسلة الاستمرار التاريخي في الحياة القومية. كان قوي الحجة ولكنه كان مفكراً ثورياً. أما موقف « برك » فكان موقف من يدرك مغازي التاريخ، فالاجتماع في نظره وليد الزمن. وقطع الصلة بالتقاليد قطعاً باتاً في منزلة الانتحار، وينزل بالحياة كرامة إنسانية عظيمة، فإذا فعلت ذلك فأنت — في رأي برك — تعالج المجتمع كأنه مادة جامدة ميتة، لا جسمًا عضويًا تنفص الحياة فيه.

وموقف الانكليزي من جودوين وبرك دليل قاطع على متجه عطفهم. فبينما كان جودوين يُسلب، رفع برك إلى مصاف الأعيان. وأسارع إلى القول بأن هذا الاختلاف في معاملتهما ليس مقياساً لقيمة أفكارهما. فكثير من أفكار جودوين وآرائه كان مبتكراً. وكثير من آراء « برك » كان عادياً معاداً. والواقع أن الأجنبي عن اللغة الانكليزية العاجز عن التمتع بصفاء ديباجة برك وبلاغته يدهش للمزلة التي انزلناه فيها. إلا أن تقدير برك ليس مسألة نستطيع أن نزعج أنفسنا ننظر فيها نظراً مجرداً عن الهوى. فهو يؤثر في الحس العملي الذي يتصف به الانكليزي. وهذا كل ما في الأمر لا أكثر ولا أقل.

فالانكليزي من الناحية السياسية، منقاد كبرك، للذاكرة والاختبار لا للعقل المجرد وأظن أن هذا القدر من الكلام في خلق الانكليزي يكفيننا الليلة. واني لأرجو أن يكون ما قلته عن التنوع في خلقه، وتمسكه بطابع أو أسلوب من نوع معين، وحسه العملي، مفيداً في تقدير الإضافات الخاصة التي أضافها الانكليزي إلى حضارتنا وهي موضوعات المحاضرات التالية. ولكن هناك شيء آخر أريد أن أضيفه إلى ما تقدم. كان آخر ما قلته الليلة أن الانكليزي يؤمن ببناء المجتمع البشري بناءً عضويًا، فهو يراه شيئاً حياً، ينمو وفقاً لنواميسه، وبطريقته الخاصة. ونحن نحارب اليوم، لسبب نكافح نزعة، نعتقد إنها تميل بالاجتماع إلى الانواء، ومحاولة لإفراغه بالقوة في قالب أيديولوجي بارد فاسد. واني لمقتنع بأن عناصر الخلق الانكليزي — وهي الشجاعة وما يلزمها والحس العملي القوي — فيها الكفاية لهذا النضال. والحقيقة أن الانكليزي يجد في فترة كهذه فرصة ليحرب أتم اعراب وأبلغه عن الخلق الانكليزي

مريضة القنفذ

البستاني

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور

— الجزء الثالث —



نقلها الى العربية : كامل محمود حبيب

البستاني

للساعر الفيلسوف طاغور

— ٥٧ —

يا دنيائي ، لقد قطفتُ زهرتك !
ثم ضممتها الى قلبي فوخزني شوكتها
وحينما انهزم النهار ، وانسدل الدجى ، ألفتُ الزهرة قد ذوت ، غير أن
الأم ما انفك يَحْزُنِي

* * *

يا دنيائي ، إن زهرات آخر ستفتحك بالعبير والعبيراء
ولكن عمرأ كنت أقطف فيه الزهر قد ولى ، وفي غسق الليل فقدتُ زهرتي
غير أن الأم وحده ما انفك يَحْزُنِي

— ٥٨ —

ذات صباح ، في البستان المزدهر ، أقبلت فتاة عمياء تقدم إلي عقداً من
الأزهار لف في ورقة من أوراق اللوتس
فأحطت به جيدي وأنهملت عيناها
ثم قبلتها وأنا أحدثها « أنت عمياء مثل هذه الزهور
« وأنت نفسك لا تدركين جمال هديتك »

— ٥٩ —

أيتهما المرأة ، لست من صوغ الخالق فحسب ، بل أنت من فن الرجال أيضاً ،
فهم أبداً ينزون عليك الجمال من أعماق قلوبهم
فالشعراء ينسجون لك ثوباً من خيوط الخيال الذهبي ، والفنانون يسبقون
أبداً على حلاصك فتناً من الخلود القشيب
والبهارات تلتقي درهماً ، والمناجم تنثر عسجدها ، والبساتين تنفتح — في العفيف —

عن أزهارها ، لتكون لك حلية وزينة وبهجة
 إن رغبات القلوب تنفتح شبابك بالبهاء
 فأنت ... نصف امرأة ، ونصف خيال

— ٦٠ —

وسط ضوضاء الحياة ولجتها تقفين أنتِ ، أيتها الجميلة ، وحيدة على نشز ، في
 صمت وهدوء ، كأنك قد نحييت على صخرة
 والدر منكب عند قدميك في تدله بهمهم :
 « تحدثي ، تحدثي إليّ ، يا من أحب ، تحدثي إليّ يا عروس ! »
 غير أن كلماتك كانت قد أغلقت في صخرة ، أيتها الجميلة القاسية

— ٦١ —

إن الهدوء ، يا قلبي ، يذر العمر ينقضي في بهجة
 وهو لا يجعل النهاية موتاً بل كالآل
 وهو يدع الهوى يذوب في الذكرى ، والألم يفنى في الأغاني
 ويذر الرحلة عبر السماء تنتهي في طيات جناحين يدفان على وكر
 ويجعل اللمة الأخيرة من يديك لطيفة كرهرة الليل
 ففي قليلاً ، أيتها النهاية الجميلة ، وتحدثي آخر أحاديثك في هدوء
 إنني أنحن أمامك ثم أمسك بمصباحي لأنير لك الطريق

— ٦٢ —

في طريق الخيال الحالك ذهبتُ أفش عن هوى لي كان في فجر الحياة

* * *

لقد كانت دارها على طرف الشارع الخالي
 في سمات الليل جثم طاووسها المدلل على فنن والكرى يداعب جفنيه ،
 وانزوى حمامها صامتاً في كين

* * *

لقد وضعت هي مصباحها إلى جانب الباب ووقفت بازائي
 ثم رفعت اليّ عينيها النجلاوين وقالت في هدوء « أنت في خير يا صاحبي »

وجهدت أن أتلمس جواباً فقلبي العي

* * *

ثم فكرت وفكرت، فما استطعت أن أجد في خاطري شيئاً حتى اسماءنا
فترقت العبرات في محجرتها، ثم مدت اليّ يدها فتناولتها ووقفت في صمت

* * *

لقد اضطرب مصباحي في نسبات الليل ثم خبا

— ٦٣ —

أيها النازح، أختماً عليك أن تبرح؟

إن الليل ساكن، والظلماء تنشر أستارها على الغابة

والمصباح في طنفي تتألق، والزهور لضرّة، والأعين الشابة ما تزال في يقظة
أفان لك أن تسير؟

أيها النازح، أختماً عليك أن تبرح؟

* * *

إننا لم نقيّد قدميك بأذرعنا المتوسلة

إن الأبواب أمامك مفتوحة، وحصانك لدى الباب مُسرج

وإذا كان لنا أن نسد عليك الطريق فذلك باغانينا فحسب

وإذا كان لنا أن نردك إلينا فذلك بنظراتنا فحسب

أيها النازح، إننا لا نجد القوة على أن نمسكك، وما لنا من سلاح سوى العبرات

* * *

ما هذا اللمب الذي يتسمر في عينيك ثم لا ينطق؟

ما هذه الحميا التي تتدفق في دمك؟

أي نداء في ضمير الليل يلح عليك؟

أي رقية مروعة استطاعت من خلال النجوم، فانسربت رسالتها السرية المختومة

إلى قلبك من خلال الليل... انسربت في صمت وشذوذ

* * *

إذا كنت لا تبالي باللقيا الجميلة أيها القلب المضنى بل تهفو إلى الهدوء،

فستنطفئ المصباح وتحطم القيثارة

ثم يجلس في هدوء الظلام بين حفيف أوراق الشجر، على حين يلقي القمر

شعاعه الشاحب على نافذتك

أيها النازح ، ماذا عسى أن تكون روح الأرق التي لستك من ضمير الليل ؟

— ٦٤ —

لقد قضيت يومي على ثرى الطريق المضطرم
والآن في برد الليل ، وقفت أطرق باب الحانة ، فألفيتها خاوية خربة
إن شجرة (الأشأت) المقطبة تمد جذورها النهمة خلال فرجات الحائط

* * *

لقد آن لعابري السبيل أن يتزامروا هنا ليغسلوا أقدامهم المسكدودة
أنهم ينشرون حصيرهم في الفناء عند شروق القمر الشاحب ثم يجلسون يتجاذبون
حديثاً عن البلاد النائية

وفي الصباح ، تبعث فيهم الأطيوار روح المرح ، فيهبون في نشوة ، على حين
تخني لهم الزهور الحبيبة رهوسها من جانب الطريق
غير أنني لم أجد ضوء مصباح يفتظرني حين أقبلتُ
بل تراءى لي سناج مصابيح ظلت تشتعل ليالي كثيرة ... تراءى لي يرمقي
من خلال الحائط كأنه عيون عمياء

والفراش يضطرب بين الشجيرات بازاء البركة الجافة ، وأغصان الخيزران تمد
ظلالها على الطريق المعشوشب

فأنا الضيف الذي لا يجمد القيرى وقد مال ميزان النهار
وأما لي الليل طويل ، وأنا متعب

— ٦٥ —

أفيكون هذا نداؤك أيضاً ؟
لقد أقبلت السُدفة ، واللقوب يضمني إليه كأنه ذراعاً محب رقيق
فهل تناديني ؟

* * *

لقد أوقفتُ عليك — أيتها الحسناء القاسية — نهاري ، فهل تريدن أن
تسلييني من ليلي أيضاً ؟

في مكان ما ، يؤول كل شيء الى النهاية ، ولكن وحشة الظلماء هي لي أنا

فهل يخترقها صوتك اليّ ليصفني ؟

* * *

أفلم يعزف الليل لحن النوم لدى بابك ؟

أفلم تخفق النجوم الصامته في السماء من فوق برجك الجاني ؟

أفلم تهو الازهار على ترى بستانك بين يدي الموت الرقيق

* * *

أختماً أن تناديني ، أيتها القلقة ؟

إذن دعي أعيناً آذاها الهوى تتشوّف عبثاً ثم تذرف العبرات

دعي السراج يحترق في البيت المنزل

دعي الزورق يحمل العمال المكودين إلى دورهم

لاني أذر أحلامي وراء ظهري ثم أنطلق لألي نداءك

— ٦٦ —

هذا الأفاق المُلْتَاث كان يفتش عن حجر الفلاسفة ، وهو أشعث أغبر ، ثم مال

الى الظل وقد ضمّ شفتيه مثلما أغلق باب قلبه ، وعيناه تتأججان كأنهما جباحب (١)

يبعث عن رفيقه

* * *

إن أمامه المحيط اللانهائي يزجر

وهذه الأمواج المضطربة تتحدث أبداً عن الكنوز الخفية ، وتسخر من الجاهل

الذي لا يفقه حديثها

لعله فقد الأمل ، غير انه لم يهدأ لأن التقيب أصبح دأبه ...

مثلما يفعل البحر حين يرفع ذراعيه الى السماء ليبلغ المستحيل

أو مثلما تفعل النجوم حين تتطلق في أفلاكها لتنتهي إلى غاية لا تدرك

وبرغم هذا فالأفاق المُلْتَاث ما يزال أشعث أغبر يفتش عن حجر الفلاسفة

* * *

وذات يوم أقبل صبي ريفي يسأله « خبرني ، أين وجدت قلاذك الذهبية ؟

(١) الجباحب ويسمى القطرب : حشرة تشع بالليل ضوءاً ، وانبعاث الضوء منها في الظلام

يرجع الى قدر من الفسفور يدخل في تركيب جسمها . ومائة منها تبعث ضوءاً يعادل ضوء شمع واحدة

ففزع الملثا . . . هذه القلادة الذهبية كانت من حديد ، لم يكن هذا حلماً
ولكنه هو لا يستطيع أن يتثبت متى استحالت إلى ذهب
فراح يضرب جبهته في عنف . . . أين ، أوه ، أين نال هو فوزاً ما محس في ضميره ؟
لقد أصبح من طبعه أن يلتقط الحصباء ويلبس بها القلادة ثم يلقي بها دون
أن يرى أثر العسات ، وهكذا وجد الملثا الحجر ثم فقده
لقد كانت الشمس تنحدر إلى الغروب فاصطبغت السماء باللون الذهبي
فعاد الملثا يفتش ثانية عن الكنز المفقود ، ولكنه كان قد مسه اللغوب
فانحطم جسمه ولصق قلبه بالثرى كأنه شجرة اجتثت من فوق الأرض

— ٦٧ —

ولو أن الليل يقبل في خطى وئيدة يوحى إلى الأغاني أن تتخافت ،
ولو أن رفاقك قد فزعوا إلى مضاجعهم وأنت تحس التعب ،
ولو أن الخوف يفرخ في الظلماء ، ووجه السماء منتقب ،
لكنك أنت أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليّ ولا تسدل جناحك
* * *

ليست هذه عتمة أوراق شجر الغابة ، بل هي عباب البحر وكأنه الحية السوداء
ليست هذه رقصة أزهار الياسمين ، بل هي ومضات الزبد
آه ، أين الشاطئ السندسي المشرق ، أين وكرك ؟
أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليّ ولا تسدل جناحك
* * *

إن الليل الموحش قد ران على الطريق إليك ، والفجر وسان خلف الهضاب المظلمة
والنجوم تمسك أنفاسها وتحصي الساعات ، والقمر الخافت يسبح عبر الليل العميق
وأنت أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليّ . ولا تسدل جناحك
* * *

لا أمل عندك ، ولا خوف
لا كلمة ، ولا همسة ، ولا صيحة
لا دار لك ، ولا فراش لراحتك
ليس لك غير جناحين وإلا السماء المقفرة
فيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليّ ولا تسدل جناحك

— ٦٨ —

يا صاحبي ، ليس على الحياة من يخلد أو ما يعمر . احفظ هذا عني ثم التمس
لنفسك لذتها

ليست حياتنا وحدها حملاً قديماً ، وليس سبيلنا وحده سفرأ بعيداً
وليس لشاعر واحد أن يترنم بأغنية خالدة
إن الزهرة لتدوى وتموت ، ولكن الذي يتحلى بها لا يأبى عليها طويلاً
يا صاحبي ، احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

لا بد من سكتة تنشد الموسيقى — من بعدها — لحن الكمال
فالحياة تدلف صوب الغروب لتغمثر في الظلال الذهبية
والحب لا بد أن يرتد من ملعبه ليرشف كأسات الحزن ويبلغ أسباب العبرات
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

لما تدفع لنقطف زهراتنا خشية أن تستلبها الرياح العاصفة
إنه لينث الحياة في عروقنا والتألق في نظراتنا أن نختلس قبلات كانت تخطئنا
إن أبطأنا

إن حياتنا تجذب القلوب ، وإن في رغباتنا الحدة ، لأن الزمان يدق ناقوس الفراق
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

ليس في العمر سعة لتمسك بالشيء فسحقه فنقذف به في الرغام
فالساعات تمر سراعاً تلف الأحلام في أذيالها
إن حياتنا القصيرة لا تد سوى أيام من الحب قليلة
ولو أنها كانت أيام عمل وجهد لا تمتد بها الزمن
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

إن في الجمال حلاوة لأنه يراقص حياتنا على رنات النغم الزائل
والمعرفة غالية لأننا لا نجد في الأجل فسحة لاتمامها

كل شيء قد أنجز وتم في السماء الخالدة
ولكن زهرات الخيال الأرضي ينفجها الموت بالغضارة اللانهاية
يا صاحبي ، احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

— ٦٩ —

إنني أتصيد الظبي الذهبي
قد تبسم ، يا صديقي ، غير أنني أراحي في إثر المنظر الذي يخلبني
فأنا أعدو عبر النجاد والوهاد ، وأضرب في أرجاء الأرض المجهولة لأتصيد
الظبي الذهبي
إنك تأتي إلى السوق لتشتري وترجع إلى دارك حاملاً حاجاتك ، ولكن
سحر الرياح الأفافة قد لمسني ولست أدري متى ولا أين
لقد تحللت من نوازع قلبي ، فكل ما يشغلني قد خلقتة ورأني
فأنا أعدو عبر النجاد والوهاد ، وأضرب في أرجاء الأرض المجهولة لأتصيد
الظبي الذهبي

— ٧٠ —

إنني أذكر يوماً من أيام طفولتي حين كنت ألهو بزورقي الورقي وهو يطفو
على الغدير
لقد كان يوماً طرباً من أيام يوليه وكنت وحدي ، سعيداً بألعوبي
وكنت ألهو بزورقي الورقي وهو يطفو على الغدير

* * *

وعلى حين بغتة انعقدت السحب ، وعصفت ربح عاتية ، وفتحت أبواب السماء
بماء منهمر
ثم تدفقت سيول الماء الكدر تجرف الغدير وتفرق زورقي
وفي أسي ، طاف بخاطري أن العاصفة لاهم لها إلا أن تحطم سعادتي وأن
تثار مني في غل
وطال يوم يوليه العبوس ، فاطلقت خواطري بين ألاعب الحياة التي فقدت

وأخذت ألوم حظي على أن خدعني ، وعلى حين فجأة ذكرت زورقي الورقي
الذي غرق في الغدير

— ٧١ —

لم ينصرم النهار بعد ، ولم ينفض الملعب . . . الملعب الذي على شاطئ النهر
لقد خشيت أن يكون يومي مسرفاً لم يدع لي فلساً
ولكن لا ، لا يا صاحبي ، إن شيئاً ما يزال معي ، وإن حظي لم يستلني من
كل شيء

* * *

الآن إنفَضَّ البَيْعَان
لقد جمعت الضرائب من كل الطرفين ، وآن لي أن أرجع إلى داري
ولكن ، أيها البواب ، أفتطلب جُـسْـلَكَ ؟
لا تُـرَـعْ ، فأنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلني من كل شيء

* * *

إن سكنت الرياح تنذر بالعاصفة ، وإن السحب المكفهرة في الغرب لا تبشر بخير
والماء ساج ينتظر هبة الريح
أما أنا فأشد لأعبر النهر قبل أن يشملني الظلام
يا صاحب المعبر ، لعلك تريد أن تطلب أجرك !
نعم ، يا صاحبي ، فأنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلني من كل شيء

* * *

وعلى حَيْـنِـد الطريق ، في ظلال الشجرة ، جلس الشحاذ . وا أسفاه ، إنه يحقد
في وفي عينيه أمل يضطرب

إنني ، في رأيي ، غني بما كسبت في يومي
نعم ، يا صاحبي ، فأنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلني من كل شيء

* * *

لقد وقب الليل ، وخلا الطريق ، والحباب يتألق بين أوراق الشجر
مَنْ عساك تكون يا مَنْ تنقصني في خطي وثيدة خافقة ؟

آء ، لقد عرفت ، إنك تريد أن تنتزع مني كل مانت . لن أجمعك في رغبتك
فأنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلني من كل شيء

* * *

وعند نصف الليل بلغت داري يدين فارغتين
وأنت لدى الباب تنتظرين في يقظة وصمت ، وفي عينيك الرغبة
ثم طرت الى صدري في شغف ، طيران الطائر الفزع
آي ، آي ، يا إلهي ، إن شيئاً كثيراً ما يزال معي ، فحظي لم يستلني من كل شيء

— ٧٢ —

لقد دأبت على العمل الشاق أياماً لأشيد معبداً معبداً لا باب له ولا
نوافذ ، وحوائطه العريضة من الحجر الصلد
لقد نسيت ما عداه ، وأعرضت عن العالم ، ثم أخذت أحرق ، وأنا غارق
في تأملاتي ، في الصورة التي علقته على المذبح
إن الظلام الدامس يشمله دائماً ، غير أن مصايح أثرت بالزيت العطري
تير جنباته

ودخان البخور المتكاثف يضم قلبي في ثناياه
وفي ليالي الأرق ، رحت أنقش على الحيطان رسوماً خلافة في خطوط غريبة
متشابكة : أفراساً ذات أجنحة ، وزهوراً لها وجه إنسان ، ونساء بأرجل ثعبانية
ليس في المعبد فرجة تنفذ من خلالها أهازيج الطير ، ولا حفيف الأشجار ،
ولا ضجة القرية الصاخبة
غير أن صوتاً واحداً كان يتردد في أرجائه المظلمة ، هو صوت الرق التي أتلوها
إن في قلبي النشاط والهدوء كأنه اللهب الساكن ، ومشاعري تغشاها الدهول
فلست أذكر كيف انقضى الزمن منذ كانت العاصفة تصفع المعبد ، ومنذ كان
الأم يحز قلبي

* * *

إن المصباح ليرأى شاحباً خجلاً ، وإن النقوش على الحائط تنظر كأنها
سلسلة من الخيالات تنظر في الضوء نظرات فارغة كأنما تريد أن توارى نفسها

و كنت أنا أهدق في الصورة على المذبح ، فخيّل إليّ أنها تبسم وتتحرك اثر
لمسة إلهية . إن الليل الذي سَجَنَتْ قد نشر جناحيه ثم توارى

— ٧٣ —

يا أمي الأرض ، ليس الثراء اللانهائي لك أنت أيتها الشمناء الصبور
إنك تكدين لتدفعي خمسة تصيب صبيتك ، ولكن الغذاء قليل
وهدية اللذة التي تحفظين لنا ليس فيها الكمال
واللعب التي تصنعين لأبنائك هشة
إنك لا تستطيعين أن تشبعي نهم آمالنا ، أفأهجر لك هذا ؟
إن ابتساماتك حلوة في ناظري رغم أن آمار الألم تضطرب في نواحيها
وحبك عزيز على قلبي رغم أنه ناقص
من ضميرك أسبغت علينا الحياة وليس الخلود ، لهذا أرى عينيك ، أبدأ ، في يقظة
منذ قرون وقرون وأنت تهيين الأصابع والأغاني ، ولأن لم تشيدي سماءك
بل وساوسها الحزينة

وهناك ، حول خلقك الجميل سحب من العبرات
سأسكب نعمي في قلبك الصامت ، وأففرغ جي في هواك
سأعبدك بالعمل
فقد رأيت وجهك الغص — يا أمي الأرض — فأحييت ثراك الكئيّب

— ٧٤ —

على مسرح الدنيا جلست البنّنة الضئيلة وشعاع الشمس ونجم الليل جميعاً
على بساط واحد
وهكذا اتخذت أغاني مكانها في قلب الأرض بازاء موسيقا السحب والغابات
ولكنك أنت أيها الغني ، إن روثك لا تجد مكانها في سلطان الشمس الذهبي
المرح ، ولا في نور القمر الرقيق
إن رحمة السماء التي تضم الجميع لا تقربك
وحين يقبل الموت بعترها الشحوب وتذوي وتهوي الى التراب

— ٧٥ —

في منتصف الليل قال الراهب المنتظر :
 « لقد آن لي أن أبذل داري لأخرج إلى ربي . آه ، من ذا الذي أمسك بي
 طيلة هذه المدة هنا في هذا الضلال ؟ »
 فهمس الله « أنا » غير أنه كان في أذني الرجل وقر
 وفي ناحية من الفراش كانت تنام زوجته في هدوء ، وقد ضمت طفلها
 النائم إلى صدرها

وقال الرجل « من عسى أن تكون يا من تفلطني طيلة هذه المدة ؟ »
 فيقول الصوت ثانياً « إنه هو الله » ولكنه ما يزال في أذني الرجل وقر
 وصاح الطفل من خلال أحلامه وقد لصق بأمه
 فأمر الله « قف أيها الغبي ، لا تبرح دارك » ولكنه ما يزال في أذني
 الرجل وقر
 فتهمس الله في تذمر « لماذا يريد عبدي أن ينطلق يفتش عني ، فينأى عني ؟ »

— ٧٦ —

لقد كانت السوق إلى جوار المعبد . وكان المطر ينهل منذ الصباح الباكر والآن
 قد انطوى النهار
 كل هذا البشر الذي يشيع في وجوه الناس يبدو واهياً إذا قيس بابتسامة
 تتألق على شفطي طفلة احتازت بينس واحد — صفارة من سعف النخيل
 إن صوت صغير هذه الصفارة الحاد المرح يغطي على كل هذه الضحكات
 وهذا اللجب
 لقد أقبل فيض من الناس يتزاحمون ، على حين كان الطريق وحلاً ، والنهر
 مترعاً ، والحقول تحت سيل من المطر ما يكف
 وإن غناء هذا الطفل يفوق كل ما تعانيه هذه الزمر ، فهو لا يجد بنساً واحداً
 ليشتري عكازاً

وعيناه المشوقتان ترمقان الدكان الذي نفتت المسكنة في هذا الناس

— ٧٧ —

لقد نزع العامل وزوجه من الاقطار الغربية ، وهما الآن يحفران في جد
يهيئان الطوب للقمين
وابتهما الصغيرة تختلف الى الموردة حيث لا تنتهي من صقل القدور
وجلاء الأوعية

وأخوها الاصغر يسير على أثرها ، ورأسه حليق وأطرافه السمرة عارية
وملونة بالطين ... وهو لدى الشاطئ ينتظر أمرها في صبر
ثم هي ترجع الى الدار وعلى رأسها جرثها المترعة متصبية في اتران ، وقدرها
النحاسي اللامع في يسراها ، وفي يدها يد اخيها الاصغر ... إنها خادمة امها المطيعة
خادمتها التي تحمل اعباء الدار

وفي ذات يوم ألفت هذا الصبي العاري جالساً وقد مدّ رجليه
وأخته على الماء تحك وعاء الشرب بقبضة من تراب ، وهي تديره بين يديها وتديره
وعلى خطوات منها حمل ناعم الصوف يرعى على طول الشاطئ
وراح الحمل يدنو من الطفل رويداً رويداً ، وعلى حين فجأة مأماً ففزع
الطفل وصرخ

فنبذت الأخت وعاءها وانطلقت صوب أخيها
ثم أمسكت بالطفل في يد وبالحمل في يد ، وحبست كلاهما بيدها عطفها ، ومن
قلب واحد انبعث حنان الأمومة الحيوانية والانسانية معاً

— ٧٨ —

لقد كان في مايو ، والظهر المكفهر يتمطى كأنه لانهائي ، والأرض الجافة
تنفخ حرق العطش من أثر الحر

في حين سمعت من جانب النهر صوتاً ينادي « تعالي يا عزيزتي »
فأغلقت كتابي وفتحت الشباك أنشوف

فرايت جاموسة ضخمة ملطخة بالطين تقف الى جانب النهر في هدوء ، وفي
عينها الصبر ، وعلى خطوات منها فتى يناديها لتفاسمه لذة ماء غمر هو فيه قدميه
فابتسمت في طرب وأنا أستشعر لمسات اللذة في قلبي

— ٧٩ —

طالما جست خلال أرض تكمن فيها حدود المعرفة التي تفصل بين الانسان والحيوان . . . الحيوان الذي لا يعرف قلبه لغة الكلام في أي جنة أزلية في فجر الخليقة ، خط الطريق السهل الذي عليه تراورت قلوبهما أن آثار خطواتهما الثابتة لن تتمحي وإن طمست الأيام على وشائج كانت بينهما ولكن على حين بغتة ، وعلى نعم الموسيقى الالهية ، تهب الذكرى الغامضة فيحرق الحيوان في وجه الانسان في إخاء رفيق ، وينظر الانسان في عيني الحيوان في عطف جميل فيترأى كان الصديقين يتلاقيان متتقين ، فلا يستطيع واحد أن يتعرف على صاحبه من خلال نقابيه

— ٨٠ —

أيتها الحسنة ، إن نظراتك تستطيع أن تستخرج كنز الأغاني من قيثارات الشعراء ولكنك لا تعيرين ثناءهم أذنأ صاغية ، ولهذا فقد جئت أتملقك إنك تستطيعين أن تدوسي أعظم كبرياء في العالم غير أن أجبائك الذين لاتصيهم الشهرة هم الذين اخترت لتعبدني ، ولهذا فأنا أعبدك

إن جمال ذراعيك يزيد في روعة لمساتهما الملوكية ولكنك تفضين بهما الغبار، وتنظفين بهما دارك الأرضية، ولهذا فالأسي يملأني

— ٨١ —

أيها الفناء ، يا فتائي ، لماذا تصفر في أذني صغيراً خائفاً في المساء ، حين تنداعى الزهور ، وتؤوب القطعان الى حظائرها . تسترق أنت الخطى الى جانبي وتحدث حديثاً لا أهمه

أهكذا — أيها الفناء ، يا فنائي — تريد ان تتودد إليّ وتجذبني اليك بجرعة
من حديثك الخدر وقبلاتك البغيضة

* * *

أفلا يكون لعرسنا حفل بهيج ؟
أفلا تتوج عقائص شعرك الأسمر باكليل من الزهر ؟
أفلا يتقدمك من يحمل رايتك ، ومن يزيح ظلمات الليل بمشاعلك الحمراء ،
يا أيها الفناء ، يا فنائي ؟

تعال وهات قعقات أصدافك ، تعال في الليلة الساهرة
وألبسي الرداء القرمزي ، ثم امسك بيدي واجذبني اليك
ولتكن عربتك لدي بابي على أهبة الرحيل ، وأفراسك تصل في غير صبر
ثم ارفع قناعي . أيها الفناء ، يا فنائي . وحدق في وجهي في كبرياء

— ٨٢ —

إن عليّ أنا وعروسي ان نلعب الليلة لعبة الموت
إن هذه الأمسية حالكه ، والسحب تتقاذفها الأعاصير ، والأمواج تزجر
لقد نبذت أنا وعروسي وطاء أحلامنا ، وفتحنا الباب على مصراعيه ، ثم خرجنا
وجلسنا على الأرجوحة ، والرياح الزفازفة تدفعنا من وراء في عنف
لقد هبت عروسي في فزع ومرح ، ثم تعلقمت بصدري وهي ترتعد
وطالما حبوتها بعنايتي
لقد كنت أهيم لها فراشاً من الأزهار ، وأغلق الباب خيفة ان يفزع الضوء
الجلال عينيها

ثم أقبل شفتيها في رفق وأهمس في أذنيها في رقة حتى يغلبها النعاس
فتعمر في حجب لا نهائية من اللذة الغامضة
لا تحس لمساتي ، ولا تستطيع أغاني أن توقظها
والليلة بلغنا صوت العاصفة من الناحية الموحشة
فارتعدت عروسي وهبت تمسك بيدي في فزع
ان الرياح تعبت بشعرها ، وان نقابها يضطرب ، وان حلالها على صدرها توسوس

لقد ردتها دفعة الموت الى الحياة
ونحن الآن ، أنا وعروسي ، وجهاً الى وجه ، وقلباً الى قلب

— ٨٣ —

إنها كانت تسكن في مطمئن الوادي على حافة غيط الذرة ، على خطوات من الغدير الذي يفيض على السواقي الضاحكة ، تحت ظلال الأشجار القديمة . إن النساء يأتين يملأن جرارهن ، والسفر يجلسون يتلمسون أسباب الراحة والحديث وهي تعمل كل يوم وتحلم على نغم حباب ماء الغدير

وفي ذات مساء أقبل حابر سبيل يستقيم من لدن القمة التي تلفها السحب ، وقد ضفر شعراً كأنه الثعابين الوسني ، فسأله في دهشة « من عسى ان تكون ؟ » فلم يرد جواباً ، غير أنه جلس الى جانب الغدير الثنار ، وراح يرمق دارها في صمت ، فتقصفت قلوبنا من رجفة الخوف ، ورجعنا الى دورنا حين أقبل الظلام وفي الصباح التالي ، أقبل النساء الى الغدير عند شجرات (الدودار) يملأن جرارهن ، فألفين بها مفتوحاً ، وقد صمت صوتها . فأين — يا ترى — اختفى وجهها البسام ؟ إن جرتها الملقاة على الثرى فارغة وقد احترق مصباحها . أي حدس يستطيع أن يقول الى أين ذهبت قبل ان يلمع الصبح ... وإلى أين انطلق حابر السبيل ؟

وفي شهر مايو أخذت الشمس تلعجنا بأوارها فأذابت الجليد ، وجلسنا نحن الى جانب الغدير نمني . وعجبنا « أفيكون في الأرض التي فزعت اليها غدير ، ومن أين تملأ جرتها في هذه الأيام الظمأى ؟ » ثم انطلقنا نتساءل « أفهنالك أرض وراء هذه التلال التي نضمنها ؟ »

كانت ليلة صائفة ، والنسيم يهب من لدن الجنوب ، وأنا جالس في حجرتها الخالية حيث مصباحها المنطفئ ، وعلى حين غفلة رأيت التلال تنحسر أمام ناظري كأنها أستار ترتفع « آه ، انها هي تدنو . كيف أنت يا طفلي ؟ أفأنت سعيدة ؟ أين وجدت المأوى تحت هذه السماء المنفرجة ؟ و ... وأسفا ! لقد تواري الغدير الذي يطفئ غلَّتْكَ ؟ »

فقلت «ان السماء هي السماء غير أنها انقلبت من حدود النلال ... وان الغدير هو الغدير يشتد صوب النهر ... وإن الأرض هي الأرض تنبسط في سعة» فتأوهت أنا «كل شيء هنا إلا نحن» فابتسمت في حزن ثم قالت «إنك أنت في قلبي» واستيقظت من نومي فسمعت خرير الغدير وحفيف شجرات (الدودار) ... سمعتها تخرق صمت الليل

— ٨٤ —

على حقول الأرز الخضر والصفير انتشرت ظلال سحب الخريف يطاردها شعاع الشمس المنطلق
لقد نسيت النحل أن ترشف رحيقها حين أسكرتها نشوة الضوء ، فانطلقت في طيش تحوم وتطن

والبط في جزائر النهر يبطط في مرح وإلى غير غاية
يا صاحبي ، لاتدع واحداً يطلق الى داره أو ينقل الى عمله هذا الصباح
دعنا نهب السماء الصافية قبل العاصفة ، ونستلب الفضاء بالعدو
إن الضحكات تسبح في الفضاء كزبد النهر
يا رفاقي ، فلنبدد الصباح بالاغاني النافية

— ٨٥ —

من عسى أن تكون يا قارئ الذي تقرأ أشعاري بعد مائة سنة ؟
أنا لا أستطيع أن أرسل اليك زهرة واحدة من راء الربيع ، ولا خطاً
ذهيباً من خيوط السحب البعيدة
فافتح بابك وسرّح الطرف

واجمع من بستانك المزدهر شتات ذكريات أزهار تداعت منذ مائة سنة
فلعلك ، من ثنايا نشوات قلبك ، تستشعر النشوة الحية التي أرسلت أغانيها
في فجر يوم من أيام الربيع ، فانبعث صوتها الشجي خلال مائة سنة

اتتهى بحمد الله : كامل محمود حبيب

بَابُ الْمُرْسَلَةِ وَالْمُنَاطَةِ

شجرة البانيان

وفصيلة التين

حضرة الاستاذ الفاضل رئيس تحرير المقتطف

أحييكم وبعد قرأت ما نشرتموه في عدد نوفمبر لحضرة المحترم السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي تحت عنوان ملاحظات عن ترجمة « البستاني » لطاغور فلفت نظري أمران أود ابداءها بعد تحريرها خدمة للعلم: الأول قوله إن شجرة البانيان ليست من فصيلة التين الى آخر ما ذكره، والحقيقة أنهما من جنس واحد وفصيلة واحدة هي التوتية (Moraceae) التي يندرج تحتها جنس التوت (Morus) وسميت به أيضاً وذلك لما يوجد من الشبه بين زهراتها وثمارها جميعاً بما فيها البانيان عند علماء النبات كما ورد في كتاب النبات لمؤلفه جورج بوست المطبوع في بيروت سنة ١٨٧١ وغيره من كتب النبات المعتمدة المطبوعة حديثاً. هذا وبطلق اسم « البانيان » على شجرتين مختلفتين وإن تقاربتا في الشبه (أي نوعين) وكلتاها تنبت في الهند وتعتبر مقدسة هناك احدها تسمى باللسان النباني (Ficus indica, L.) وبالانجليزية (banyan و priest's tree) وبالفرنسوية (figuier admirable و banyan و figuier d'Inde) والثانية تسمى باللسان النباني (Ficus benghalensis, L.) وبالانجليزية (banyan) وبالفرنسوية (arbre banyan و figuier de Bengale و figuier de pagadoes) والأمري الثاني هو قوله إن شجرة « أشوكا » تسمى بالفرنسية (Jonesia asoca) والحقيقة أن هذا هو اسمها باللسان النباني ويرادفه حديثاً (Saraca indica, L.) وبالانجليزية (asoca tree, asoke tree) وهي من الفصيلة القرنية (Leguminosae)

بَابُ الْإِخْبَارِ بِالْعِلْمِ

العالم والحرب

١ — طائرات الاسطول وعملها

ولكن هذه الطائرات لا تبقى على السطح بل تنقل بأجهزة خاصة عندما تحط على السطح الى حظائر خاصة مبنية تحت السطح في طبقتين وترفع اليه عندما يراد استعمالها . ويلحق بهذه الحظائر « ورش » فيها عمال متقنون لترميم كل ما يلزم ترميمه في الطائرة ومستودعات للبنزين وغير ذلك مما يلزم لسكن رجال السفينة وعملهم ومن حيث ان « حاملة الطائرات » هدف كبير لطائرات الأعداء لا تساع سطوحها الأعلى — وهو في منزلة مطار صغير — يجب ان تكون « الحاملة » مجهزة بمدافع كثيرة مقاومة للطائرات. ولذلك نجد « الأرك رويال » مجهزة بستة عشر مدفعاً مقاوماً للطائرات من عيار أربع بوصات ونصف البوصة وثمانية عشر مدفعاً صغيراً مقاوماً للطائرات وستة مدافع مركبة من الطراز الذي يُسمى « يوم يوم » وهو تقليد صوته وكل من هذه المدافع المركبة يشمل فوهات متعددة تطلق مئات الطلقات في الدقيقة وعلى ذكر « الأرك رويال » نقول ان طائرات مستندة اليها أغارت على قاعدة كالياري في سردينيا في أوائل نوفمبر ١٩٤٠ . والقراء يذكرون ان الدعاية الألمانية أغرقت هذه الحاملة مراراً في بدء الحرب — على أجنحة

السلاح الجوي التابع للأسطول البريطاني جزء أصيل من الأسطول ويأتمر بأمر قيادته. وطائرات هذا السلاح غدت عين الأسطول الحادة البصر في الاستكشاف والاستطلاع وذراع القوة الطويلة في ضرب الأعداء. وهي الطائرات التي ضربت الأسطول الإيطالي في قاعدة تراتو ضربة قوية ليل ١١ نوفمبر الماضي. ثم ثنت على الأرصفة والمنشآت التي في الميناء طائرات السلاح الجوي البريطاني. وعادت طائرات الأسطول بعد ذلك فخلقت فوق السفن المصابة فوكد رجالها بالنظر والتصوير الضوئي ان البوارج الثلاث معطلة وان الطرادين والسفيتين المساعدةتين غارقة تحت الماء. ومن الطبيعي أن تستند هذه الطائرات الى قواعد في البحر هي حاملات الطائرات أو البوارج والطرادات الكبيرة والمتوسطة

حاملات الطائرات

حاملات الطائرات سفن كبيرة لها في أعلاها سطح متسع طوله ٨٠٠ قدم ترتفع منه الطائرات في الجو وتنزل عليه . وتتسع الحديثة منها « كالارك رويال » أو « الاستر يوم » لستين طائرة أو أكثر.

فتعجز اذا كانت مائة عن الارتفاع عن سطح البحر او النزول عليه . ومنها ان الطائرات المرتفعة من سطح الحاملة اسرع ارتفاعاً منها لو حاولت الارتفاع من سطح البحر . والسرعة عنصر أساسي في قدرتها على الدفاع أو الهجوم وتختلف أصناف الطائرات التي تحملها حاملات الطائرات وفقاً للغرض منها . فإذا كانت للاستطلاع والاستكشاف كانت من نوع معين وإذا كانت للاشتراك في حماية القوافل البحرية كانت من نوع آخر . وإذا كانت لمهاجمة السفن الحربية الكبيرة كانت من نوع ثالث . وهذه الطائرات الأخيرة هي التي تهتمنا بوجه خاص في هذا الفصل لأنها استعملت في الاغارة على قاعدة ترانوف أحدثت تلفاً عظيماً في ثلاث بوارج ضخمة وأغرقت طرادين وسفينتين مساعدتين

اذا القيت قنابل من الجو على سطح بارجة حديثة كالقنابل التي تلقيها الطائرات البرية على المطارات والأهداف العسكرية فالغالب أن ذلك لا يؤثر فيها تأثيراً يذكر لأن درع السطح من الصلب النخين المتين

ولذلك تستعمل طائرات تستطيع ان تقذف البوارج « بطرايد » على نمط « الطرايد » التي تقذفها بها الغواصات فتصيبها عند خط الماء أو تحته حيث تكون بادية المقتل . وهذا عمل يحتاج الى جرأة عظيمة وإحكام تام . لأن الطائرة التي تحمل الطرايد لا تستطيع أن تلقيها من عل فإذا فعلت غاصت الطرايد في الماء .

الأثير . وجزي الطيار الذي أغرقها بوسام وترقية . ثم اشتركت في البحث عن السفينة الحربية الألمانية المغيبة على السفن التجارية في المحيط الأطلنطي فقطعت ٧٥ ألف ميل في رحلتها تلك فقط وطارت طائراتها المستكشفة فوق مساحات من البحر مجموع مساحتها خمسة ملايين ميل مربع . ثم جاءت البحر المتوسط فنزلت عليها الدعاية الإيطالية فعطبتها مرة وأغرقها أخرى — على أجنحة الأثير كذلك كانت حاملة الطائرات في بدء عهد الأسطول البريطاني بها سفناً حولت مما بنيت له أصلاً الى حمل الطائرات . ثم أعد المهندسون البحريون تصميمًا خاصاً لسفن تستعمل لهذا الغرض وحده . وقد يظن ان سفينة ضخمة من هذا القبيل لا بد ان تكون بطيئة السير ولكنها في الواقع سريعة تزيد سرعتها على ثلاثين ميلاً بحرياً في الساعة ولا غنى لها عن هذه السرعة ولا عن سهولة تحريكها لأن سرعتها عامل عظيم الشأن في قدرة الطائرات على الارتفاع من سطحها أو النزول عليه في مدى ضيق

طائرات الأسطول وأوصافها

والطائرات التي تحملها من الطائرات البرية ، أو التي تستطيع ان تحط على البر أو البحر (الأميفية) وهذا قليل ، وقلما تكون من الطائرات البحرية وذلك لأسباب فنية متعددة منها ان الارتفاع في الجو أو النزول على سطح (الحاملة) قديم في جو طاصف وبحر مضطرب

أغارَت تلك الغارة الموفقة على قاعدة تراتو يوم الاثنين ١١ نوفمبر ١٩٤٠ وهناك طائرات أخرى تابعة للأسطول تحملها السفن الحربية الكبيرة والمتوسطة وتقذف في الجو - لعدم وجود سطح بحري عليه قبل الارتفاع - بجهاز خاص يشبه المنجنيق القديم

والأسطول قواعد بحرية لتدريب الطيارين وغيرهم ولكنها تسمى باسماء السفن لأنها تابعة للأسطول. وقد ضحك الانكليز ملء اشد اقمع عندما أذاعت المحطات الألمانية من أشهر ان الطائرات الألمانية أغرقت سفينة حربية بريطانية تدعى « كسترل » لأن « كسترل » اسم يطلق عندهم على احدى هذه القواعد

ولكن عليها أن تنقض من عل فاذا وصلت الى ارتفاع يسير فوق سطح الماء وعلى بعد لا يزيد الف قدم عن البارجة المقصودة اتخذت الطائرات وضعا سطحيا في أثناء سيرها السريع - وهذه الطائرات أجهزة خاصة تمكنها من ذلك - وتلقي طريدها في الماء فكأنه أطلق من غواصة على سطح الماء فلا يصطدم بالماء فاذا اتخذ مسيره فيه اندفع بفعل محركه الخاص الى الهدف اذا أحكم توجيهه

والطريد الذي تحمله هذه الطائرات مثل طريد الغواصة الا انه أصغر قليلا منه. وقد صنعت للأسطول البريطاني طائرات خاصة للنهوض بهذا العمل تعرف باسم « بلاكبورن سكوا » وهي على المرجح التي

٢- اتجاهات الحرب الجوية: بيان بين المختصين

وقال في مكان آخر من كتابه « وما يعلق به شأن كبير وجود هيئات علمية منظمة للبحث العلمي الصناعي . وليس في وسع الكتاب ان يغالي في قيمة هذه الهيئات وذلك لأن علوم هندسة الطيران تتقدم تقدماً حثيثاً فالتخلف في مضمار الاتقان او الابتكار قد يكون الباعث على الهزيمة... واذا كان البحث العلمي الصناعي ذا شأن عظيم في الجيوش والأساطيل فليس لسلح الطيران غنى عنه »

ويلوح لنا مما نسمعه ونقرأه لخبراء الطيران في مختلف الأنم الكبيرة ان الاتجاه الرئيسي في

الحاجة الى البحث العلمي

في منتصف سنة ١٩٣٩ نشر الخبير الحربي الاميركي المايجر فيلدينج اليوت كتاباً عنوانه « قتال تنفجر في الجو » وصف فيه الحرب الجوية الحديثة من نواحيها المختلفة. وما قاله فيه « ان تفوق دولة ما في القوة الجوية قد يقلب ضعفاً بظهور طراز جديد من الطائرات يعتمد عليه عدوها كما حدث غير مرة في الحرب العالمية الماضية . أو بابتكار خطط جديدة لاستعمال الطائرات كما حدث عندما ابتكر أسلوب طيران الطائرات اسراباً في أوضاع معينة »

وهم أخبر الناس بالصناعة الواسعة النطاق ولا سيما صناعة السيارات وما يشبهها وعلى كل حال فالطائرات الجديدة لا يمكن ان تعتبر عاملاً حربيًا فعلاً إلا بعد تمتحن امتحاناً عملياً في القتال

الغارات الليلية ومخزنها

ويقول خير الطيران الانكليزي اوليفر ستيوارت ان إحجام الألمان عن الاغارة على بريطانيا في النهار بعد ما اخفقت قاذفاتهم ومطارداتهم في التغلب على طائرات «السبنفير» «والهاريكان» أو مساواتها حملهم على سلوك طريق الاغارات الليلية. وما يجيء من طائراتهم في النهار يجيء على ارتفاع عظيم فيلقي قنابله ويفر في سرعة عظيمة. وهذا في رأيه يشير الى أن علماءهم ومهندسيهم يوجهون عناية خاصة الآن الى صنع طائرات تتصف بالقدرة على التحليق تحليقاً عظيماً والطيران بسرعة فائقة وإعدادها خاصة للاغارة في الليل

يقابل هذا أن علماء الانكليز ومهندسيهم يجب أن يعالجوا مشكلتين أولاهما، مقاومة الغارات الليلية المركزة. وثانيتهما إتقان صنع الطائرات القاذفة التي تستطيع أن تطير مدى بعيداً بأكثر حمل من القنابل. ويجب أن نتذكر أن علماء الانكليز تمكنوا من ابتكار الحل الموافق لىكل مشكلة حربية واجهوها حتى الآن مع أن حل كل منها بدا متعذراً عند ظهورها. فخلوا مشكلة اللغم المغنطيسي في هذه الحرب بسلك مكهرب

الحرب الجوية الآن، الى ابتكار اشكال جديدة من الطائرات او طائرات تتصف بمزايا لم تعهد من قبل لكي تتفوق على الطائرات المستعملة الآن. وجميعهم يسلم نصريحاً أو تلميحاً بان المرحلة الاولى من الحرب الجوية بين المانيا وبريطانيا انتهت بفوز بريطانيا اذ عجزت المانيا عن انتزاع لواء سيادة الجو فوق المانش وبريطانيا من سلاح الطيران البريطاني وذلك لأن مزايا الطائرات البريطانية من الوجهة الفنية عوّضت قلة عددها ومكنت رجالها البواسل من انزال خسارة فادحة بالطائرات الالمانية المغيرة على بريطانيا نهائياً. خبراء بريطانيا واميركا يقولون ذلك صراحة وخبراء المانيا وايطاليا بشيرون اليه ضمناً اذ يقولون — على ما جاء في رسالة لمكاتب صحيفة «كرستيان ساينس مونيتور» الاميركية — ان الطائرات الجديدة المنتظرة ستمكنهم من تقلد لواء السيطرة الجوية في السنة القادمة. فاذا لم تتح لهم فاهم يستطيعون على الأقل ان ينعوا بريطانيا من تقلده

ولذلك يعني الألمان انفسهم باحتمال تمكنهم من غزو بريطانيا في الربيع القادم إذا ثبت ان مزايا طائراتهم المنتظرة تتيح لهم السيطرة على جو المانش والجزائر البريطانية وهو ما سعوا اليه في شهري اغسطس وسبتمبر الماضيين وعجزوا عنه. ولكن الخبراء الأميركيين يرون أن تعديل الأساليب الصناعية لتوافق صنع الطائرات الجديدة صنفاً واسع النطاق ليس بالأمر السهل ولا يمكن أن يحقق في أمد قصير

يعدل الفعل المغنطيسي الذي يتصف به حديد السفينة فلا يجذب إبرة اللغم وكذلك يحول دون انفجاره . وفي الحرب الماضية وجدوا حلاً لمشكلة الغواصات بإنشاء القوافل وتجهيز المدمرات بقنابل الاغوار

ويقال أنهم يجربون الآن وسائل ابتكرت لمقاومة المغيرات في الليل وروت الصحف الأمريكية أن الطيارين الألمانين وصفوا مناطق معينة في إنكلترا بأنها «مناطق حامية» إشارة منهم الى أن الاغارة الليلية عليها تعرضهم لما ليس في حساباتهم . فاذا نجحت هذه الأساليب بعد التدقيق في امتحانها عم استعمالها

طائرات بعيدة المدى

أما الطائرات البعيدة المدى فهي سلاح بريطانيا في الهجوم على منابع القوة الحربية الألمانية والإيطالية . ولما كانت المسافات بين بريطانيا ومراكز الصناعة الألمانية والإيطالية بعيدة فكل اتقان يتيح صنع طائرات أطول

مدى من الطائرات المستعملة الآن يزيد في قوة هذا الهجوم على شرط ألا يكون طول المدى على حساب مقدار ما يحمله هذه الطائرات من قنابل . وبراعة الانكليز العلمية مشهورة . ومن حسن الحظ أنهم يتعاونون مع العلماء والمهندسين الأمريكيين . وقد شرع الأمريكيون في صنع طائرات من أطرزة مختلفة يقال إنها تفوق معظم الطائرات المستعملة الآن . ومن المبادئ الجديدة التي بدأوا يجربونها مبدأ إذا صح ما يتوقع له جعل القاذفات أطول مدى وأسرع مما هي الآن بغير أن ينقص حملها من القنابل

فيتضح من القليل الذي قلناه في ما تقدم ان التفوق الجوي الآن لسلاح الطيران البريطاني . وان كان لا يبلغ مرتبة السيادة العامة في الجو . وان مستقبل الحرب الجوية يقرر الآن في دوائر البحث العلمي وما قد تسفر عنه المباحث والتجارب من مزايا جديدة تصف بها الطائرات المنتظرة من الفريقين

فيتامين ب ١ وهراته أوعية الدم

وجد الدكتور الكسندر أن الحمام الذي يحرم من هذا الفيتامين يصاب بمرض يشبه تماماً ما تصاب به أدمغة مدمني الكحول من التهاب يصحبه زف . ومن أعراض هذا المرض تنكس جدران أوعية الدم فاذا كان طعام الحمام محتوياً على جميع أصناف الفيتامين وخالياً من هذا الصنف الخاص أصيب بهذا المرض . وإذا كان طعام الحمام محتوياً على هذا الفيتامين

أثبت الدكتور الكسندر أحد أطباء مدينة بوسطن الأمريكية أن لفيتامين (B1) شأنًا خاصاً في حاية جدران الأوعية الدموية مما يلزمها في بعض الحالات المرضية ووصف تجاربه التي أفضت به الى هذه النتيجة في رسالة تلاها على الجمعية الاميركية لعلماء الباثولوجيا والبيكتريولوجيا في إجتماعها الذي عقد حديثاً في مدينة بتسبرج

(B1 ب) بصون العصب وبقي المرء من «النوريتس» اي التهاب العصب فثبت الآن من تجارب الدكتور الكسندر في الحمام انه يحول دون تنكس أوعية الدم كذلك وتكفي مقادير صغيرة منه لذلك

وخالياً من اصناف الفيتامين الاخرى فإنه يصاب بشتى الأمراض الناشئة عن فقد الفيتامينات الأخرى ولكنه لا يصاب بهذا الالتهاب النزفي وقد كان العلماء يعرفون ان فيتامين

اعلى المراصد لرصد الشمس

النائية التي يشاهد منها الكسوف الطبيعي على أتمه ولكنه يعينهم على تحقيق مسائل كثيرة تحتاج الى تحقيق ثم تطبق النتائج التي تستخرج منها عند ما تكسف الشمس كسوفاً طبيعياً

ويرى الدكتور «منزل» Menzei أحد علماء مرصد هارفرد — وقد عهد اليه في إدارة شؤون المرصد الجديد — ان رصد إكليل الشمس يوماً يوماً له فوائد عملية علاوة على الفائدة النظرية ومنها التمهيد لفهم الأعاصير الكهربائية التي تحدث اضطراباً في المواصلات الكهربائية ثم التنبؤ بها قبل وقوعها

وبرى كذلك أن رصد كلف الشمس وألسنتها المتدلعة وإكليلها وما بين هذه الظواهر من صلة لا بد أن يفضي الى فهم أدق لحالة باطن الشمس وما لهذه الظواهر من تأثير في الأرض وجوها

عني الاميركيون بانشاء مرصد «في الحيال الصخرية» بولاية كولورادو على ارتفاع ١١٣٨٨ قدماً والغرض من انشائه على هذه القمة ضمان صفاء الجو ونقاوة الهواء من دقائق الغبار وقتاً كافياً للرصد الدقيق. اما الاعمال الفلكية التي ينتظر ان يتجه اليها علماء المرصد بوجه خاص فهي رصد منظم لإكليل الشمس وهالتها اللؤلؤية التي لا تشاهد إلا عند ما تكسف الشمس كسوفاً كلياً

وأعدوا جهازاً خاصاً لدراسة إكليل الشمس يسمى (كرونوجراف) Cronograph وهو الجهاز الأول من نوعه في العالم الجديد والثالث من نوعه في العالم. وبه يستطيعون ان يصطنعوا كسوفاً أي أن يحجبوا ضوء الشمس كما يحجبه ظل القمر في الكسوف الطبيعي ثم يدرسوا الحالة التي تظهر على أثر حجبه. وهذا لا يقضيهم الآن عن شد الرحال الى المواقع

الارانب أقدم الثدييات اللاحمة

ويجاريها في ذلك حيوان «الايوسوم» وهو حيوان ثديي اميركي من ذوات الكيس، ويتفاوت حجمه من حجم فأر الى حجم هر كبير

رى الدكتور وليم سكوت استاذ الجولوجية سابقاً في جامعة برنستون ان الارانب اقدم الثدييات في القارة الاميركية وانها تزداد الى عصر الايوسين قبل ٣٠ الى ٤٠ مليوناً من السنين.

الحرية وعلم الحياة

يغلب على ذهن ان الحرية فكرة سياسية اجتماعية ولذلك يندر من يتوخى التفوذ الى ما وراءها من حقائق لها أساس بيولوجي . ولعلنا نستطيع ان نحدد الحرية من الناحية البيولوجية بقولنا « انها حرية الحيوان في ان يتصرف وفقاً لدافع فطرته او غريزته » . وانطلاق حرية الحيوان من قيود بيئته يستتب له عندما يتوقف عن ملائمة نفسه للبيئة ويشعر في تعديل البيئة وفقاً لحاجته . واذا صح أن بعض الحشرات والحويوانات استطاعت الى حد ما ان تفوز بقسط من السيطرة على بيئتها ، فالانسان استطاع ذلك وحده دون غيره من الحيوانات العليا

فما هي المراحل التي اجتازها الانسان في طريقه الى هذه السيطرة ؟
أولاً — تخلى أسلاف الانسان عن المعيشة في الشجر والاعتماد في غذائهم على الأوراق والجذور والثمار وغيرها . ولما كان الجانب الاكبر من هذه المواد غير مقدر لكثرة ما فيه من الماء فقد كان الحيوان يحتاج الى مضغ مقادير كبيرة منها ليفوز بالقدر الذي يحتاج اليه من الغذاء والى إزالة ما يتبقى منها في النظام الهضمي — وهو كثير — بالتبرز على الغالب ثانياً — تلا ذلك انتصاب القامة وما صحبه من المشي على القدمين ، فانطلقت بذلك الذراعان لاستعمالهما في الأكل واللمس والمسك ثم لصنع

جزء •

(٧٠)

بعض الأدوات التي تقتضيها الحاجة والمعيشة على سطح الارض أفسحت المجال أمام النوع الحيواني الذي نشأ منه الانسان ، لأن الأرض على اطلاق القول أفسح من الغابات ، وهذا مكن تلك الحيوانات من التحول من غذاء نباتي الى غذاء شامل . فأضيف السمك واللحم الى الأوراق والجذور والثمار . والسمك واللحم غذاء تتركز فيه الطاقة السكامة فكفاية الحيوان منه مقدار يسير بالقياس الى كفايته من الخضراوات ، وهذا أتاح له وقتاً لعمل آخر كان قبل ذلك يستنفده في الاغذاء بالخضراوات . وكذلك حدث للمرة الأولى في تاريخ النشوء العضوي ان الحيوان أصبح أمام كثرة وافرة من أصناف الطعام لا يتاح أفضلها وأجودها إلاّ لأسرع الحيوانات واجرأها وأقواها

ثالثاً — تمكن الانسان من تحقيق المرحلة الأخيرة في هذا التحرر من قيود البيئة وذلك بتدجينه أصناف النبات والحيوان وتكثير أصنافها وفقاً لرغبته ، فحملها بذلك على ان تعمل له ما يريد ان تعمل . ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد ان الانسان لم يطلق عقله من قيود البيئة إلاّ باخضاع جانب كبير منها لمشيئته ومقتضيات حاجته ، وأن الحرية البيولوجية بهذا المعنى لا تحقق إلاّ بسلب حرية الحيوانات والنباتات وغيرها من مقومات البيئة التي يعيش فيها

السكر ونشاط النحل

ميلغراماً بل لتحريك حمل يتفاوت من ١٠ ميلغرامات الى ٨٠ ميلغراماً كذلك وقد أجرى الأستاذ بنتلر Bentler — على ماروي في مجلة دسكفري (الاكتشاف) الانكليزية — تجارب غرضها تحقيق مقدار السكر في جسم النحلة فوجده على المعدل أعلى منه في سائر الحيوانات التي شملتها تجاربه ولكن هذا المقدار متفاوت وفقاً للحالة الفسيولوجية والعمر والتغذية وحالة الجو وحرارته ثم ظهر له أن مقدار السكر المتاح لتوليد الطاقة يزداد بازدياد حركة الأجنحة . وأخيراً ان النحلة تستمد هذا السكر لتوليد الطاقة من العسل المخزون في جسمها لأنه عندما أزيلت غدة العسل أو «معدة العسل» أصيبت النحلة بالاعياء . فهي لا تستطيع أن تطير الا اذا كان السكر متاحاً بها

اذا نقص مقدار السكر في الدم عن حد معين أصيب الجسم بالاعياء لأن احتراقه مصدر من مصادر الطاقة الحيوية . ومن أهم وظائف الكبد تركيب المواد النشوية ومنها السكر وتوزيعها على الجسم عند ما ينقص مقدار السكر في الدم . ولكن ماذا تصنع أجسام الحيوانات غير الفقارية ؟ ماذا تصنع النحلة مثلاً وهي متصفة بنشاط عظيم وليس لها كبد تصنع السكر وتخزنه ثم توزعه عند ما يشتد النشاط ؟ ومع ذلك فالنحلة تستنفد مقداراً كبيراً من الطاقة فتطير في مدى ربع ساعة مسافة مليون ونصف ميل أو نحو عشرة أميال في الساعة ، فتتحرك في أثناء طيرانها عضلات الجناحين ثمانية عشر ألف حركة . وكذلك عضلات الصدر . والطاقة التي تستنفدها لا تستعمل لتحريك جسمها فقط ووزنه نحو ٧٥

القلع الطائرة

يستطيع قاذف القنابل في الطائرة ان يعتمد عليه في تسديد قنابله الى الهدف المقصود ولو كانت الطائرة على ارتفاع عظيم فوق سطح الأرض . ومخترعه «سپري» Sperry احد كبار المخترعين الاميركيين وله أثر كبير في اتقان صنع «الدوامة» (جيروسكوب) واستعمالها وجاء في مجلة رسالة العلم الاسبوعية الاميركية أنه من المنتظر أن تصبح مصانع الطيران في اميركا قادرة على صنع ٢٥ ألف محرك طائرة في السنة ابتداء من ديسمبر ١٩٤٠

أذيع في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الاميركية ان الحكومة اباحت لبريطانيا شراء ست وعشرين من القاذفات الاميركية الضخمة المشهورة بوصف «القلع الطائرة» وهي طائرات وزن كل منها ٣٠ طنّاً والمسافة بين طرفي جناحيها ١٥٠ قدماً وتسيرها اربعة محركات قوة كل منها ألف حصان وتقطع ثلاثة آلاف ميل وهي تحمل حملاً كبيراً من القنابل ، علاوة على انها مجهزة بمدافع ورشاشات وتتسع لاحد عشر رجلاً ومن اشهر اجزاء هذه الطائرات «منظار»

علاج داء الصرع : مادة عجيبة

الدواء يوميًا. وقد يضطرُّ الى مداومة تناوله يوميًا اذا لم يحدث فيه تحوُّل فسيولوجي أو هستولوجي بفعل هذا الدواء بعينه سويًا بغير تناوله . وكان عند ما فحص عمره العقلي بحسب مقياس الذكاء المعروف بمقياس « ستانفورد بينيه » في ٢٩ نوفمبر من السنة الماضية يبلغ ست سنوات (سن عقلية) ففقدت سنه العقلية بعد معالجته بضعة اشهر بالديلاتين عشر سنوات . وكان في خلال ذلك يتلقى مبادئ التعليم على سيدة تدعى المسز فرين فنقدم تقدمًا سريعًا في الفهم والمعرفة مما يدلُّ على أن مادة الدماغ لا تتنكس بفعل داء الصرع

وتقدمه في المعرفة سار جنبًا الى جنب مع تقدمه في آداب السلوك والبراعة في الرياضة وغيرها ونما يؤسف له ان مجلتي خلاصة العلم ورسالة العلم الأسبوعية (اغسطس ١٩٤٠) نقلتا هذا الخبر عن بيان اذاعه قلم المطبوعات العلمية في واشنطن ولم تصفا تفصيلًا هذا العقار المعروف باسم « ديلا تين »

عرض الدكتور هورد فاينج على « جمعية طب النفس الاميركية » قصة شاب قد تكون اصابته وعلاجها مستهلَّ عهد جديد في طب الأمراض العقلية وخاصة داء الصرع Epilepsy « يوحين » شاب في الثالثة والعشرين من عمره قضى سبع عشرة سنة منها وكأنه مصاب بنوبة صرع مستمرة . ولكنه عاد سويًا الآن فلا يصاب بها، وذلك بفضل عقار يدعى ديلا تين Dilantin . ولا يقلُّ تقدمه العقلي عن تقدمه الصحي بعد علاجه هذا كان يوحين الى ان تخطى السنة السادسة من عمره صبيًا سويًا ثم بدأت نوبات الصرع تتناوبه، من النوبات الخفيفة الى النوبات العنيفة الذي يكثر فيها الزبد على الشدقين وغير ذلك من الاعراض . وقضى السبع عشرة سنة التالية من عمره على هذا المنوال

فعولج اولًا بجرعة من الديلاتين يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٩ فلم يصب بعد ذلك بنوبة صرع واحدة . ولكنه كان يتناول جرعة من هذا

صالح الملح من تناقض

الى محلول لا يؤذي قوامه الملح والماء . ثم ان الملح الصخري اقسى من الفحم الحجري ولكنه يذوب في الماء . ويساعد على تجريد « الخيلاتي » ولكنه يذيب الجمد . ويحفظ الطعام من الفساد ولكنه يقتل النبات . ويقصر القماش (أي يبيضه) ولكنه يصنع الجلود

ملح الطعام قوامه الصوديوم وهو فلز يهترق في الماء والكلور وهو غاز سام . ومع ذلك فلا غنى عن ملح الطعام لحياة الحيوان . ولا يخفى ان الحامض الايدروكلوريك وللصودا الكاوية من أشد المواد فعلاً تآكلية ومع ذلك اذا مزجت بمقادير معينة منهما تحولا

تجديد انتخاب روزفلت

ينابر ١٩٣٧ واتخب ثالثة في نوفمبر ١٩٤٠
نعم ان الدستور الاميركي لا يحظر انتخاب
احد للرأسة اكثر من مرة وقد انتخب فريبك
كبير من الرؤساء مرتين منهم في القرن العشرين
الرئيس ودررو ولسن اذ انتخب اولاً سنة ١٩١٢
وجدد انتخابه سنة ١٩١٦ ومنهم ثيودور
روزفلت مع انه لم ينتخب رئيساً مرتين . بل
انتخب وكيلاً للرئيس في سنة ١٩٠٠ ومات رئيسه
خلفه ثم جدد انتخابه رئيساً في سنة ١٩٠٤
وعند ما حاول الفوز بالرأسة مرة ثالثة سنة
١٩١٢ انشق الحزب الجمهوري وفاز بالرأسة
ولسن مرشح الديمقراطيين

تمت انتخابات الرأسة الاميركية يوم
الثلاثاء الموافق لليوم الخامس من شهر نوفمبر
١٩٤٠ وكان المرشحان الكبيران الرئيس
روزفلت عن الحزب الديمقراطي والمسترونديل
ويلكي عن الحزب الجمهوري . ففاز الرئيس
روزفلت باكثرية كبيرة في جميع الناخبين بلغ
٤٦٧ صوتاً من ٥٣١ صوتاً . فجدد انتخابه
فهو أول رئيس في الولايات المتحدة الاميركية
انتخب للرأسة ثلاث مرات
كان انتخابه الاول في نوفمبر سنة ١٩٣٢
وتقلد الرئاسة في مارس ١٩٣٣ ثم جدد
انتخابه في نوفمبر سنة ١٩٣٦ ونصب في ٢٠

الذهب في مصر القديمة

اشارة عنها فأعيد فتحها في معظم الأحيان
تقع هذه المناجم في المنطقة الجبلية بين
وادي النيل والبحر الأحمر . وقد تتبع المصريون
القدماء . عروق المرو (الكوارتز) المحتوية
على الذهب الى أبعد حد وكانوا يستحقون
المرو في مطاحن من حجر الديوريت الصلب
 ويفصلون المرو عن الذهب بفسله على ألواح
مائلة ، وقد عثر المنقبون على أوان وحلي من
الذهب يرجع عهدها الى ملوك قدماء المصريين
وقد نقلنا ما تقدم بتصريف يسير عن فصل
ثروة مصر المعدنية للاستاذ رياض حجازي في
كتاب «أحاديث العلوم»

في أقدم خارطة عرفت حتى الآن وهي
التي وجدها « دروفيتي » في طيبة إشارات
متعددة مكتوبة بالخط الهيروغليفي تدل على
وجود الذهب في الصحراء الشرقية المصرية
ويحتوي هذه الخارطة على رسم للعلك سיתי
الاول مما يدل على أنها ترجع الى سنة ١٥٠٠
ق . م ووجدت نقوش على حائط معبد مدينة
« هابو » تدل على وجود الذهب في عهد
رعسيس الثالث . وهذه النقوش تمثل أواني
وأوعية كتب على معظمها أنها من الذهب
وإعماداً على الخارطات المصرية القديمة أستدل
على وجود المناجم القديمة المختلفة التي وردت

وفيات الاعلام

الحلفاء . ولورد رذر مير شقيق لورد نورثكليف وصاحب جريدة الديلي مايل وما يتصل بها من صحف كثيرة في انكلترا . ولورد جراي جاثون رئيس وزارة ألستر في شمال أيرلندا . اما المستر تشمبرلين فقد وقفنا على سيرته فضلاً خاصاً في باب سير الزمان

توفي في اثناء الشهر الماضي (١٣ نوفمبر) المغفور لها حسن صبري باشا رئيس الوزارة المصرية ويونس صالح باشا وزير الدفاع (٢٧ نوفمبر) . وكاي پتمن رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي وكان من أقوى أنصار تعديل قانون الحياد رغبة منه في مساعدة

وفاة العالم هورلر شفنسكي في الاسكندرية

بالعلاج بواسطة الأشعة التي فوق البنفسجي ، وهذه الأشعة تنفذ خلال الجسم فتؤثر فيه حتى تكسبه ما يعوزهُ من فيتامينات لازمة لبناء العظم بناءً سويّاً

ولم يقف هولدنسكي عند هذا الحد بل قرر الاحتياطات اللازمة للوقاية من هذا المرض أيضاً

ومنذ ذلك الحين ذاع صيت هذا العالم الكبير وانتخب عضواً في الجمعيات العلمية وحمل أشرف الأوسمة وأرفعها ولكن النطاسي الكبير ظلّ في حياته مجهولاً لبعده عن حب الظهور ورغبته عن الزهو ، حتى قذف به كابوس النازية بعيداً عن وطنه وأهله وبناته ومكتبته الكبرى التي حوت أنفس الكتب ومعرض صورهِ النادرة الذي يرجع الى اثناء زوجته الجميلة الى اسيرة من كبار المصورين ، فأقام بالاسكندرية الى أن مات فقيراً منذ بضعة أيام بعد أن أفاد العالم أجمع


فألى أرواح العلماء جميعاً رحمةً ورضواناً محمد مظلوم الشامي

قضى فجأة بالاسكندرية منذ أيام أحد كبار العلماء الذين أسدوا الى الانسانية أجل الخدمات وهو العالم الالماني الشهير ، طريد النازية ، الدكتور هولدنسكي

ولقد كان هذا النطاسي الكبير أول من استكشف علاج مرض الكساح Rachitisme

قضى نحبه أثر عملية بتأثير ضغط في الدم اتا في أيامنا هذه نفسى سريعاً ما أثر هؤلاء الناس الذين قضوا حياتهم في سبيل إنقاذ الانسانية ولكن لا يجوز لنا أن ننسى هؤلاء الصبية الذين يبعث مظهرهم على الاشفاق من شحوب بشرتهم ونحول أجسامهم والتواء سيقانهم هؤلاء الصبية ذوي البطون المنتفخة والاسنان الصفرة ، وتلك هي أعراض مرض الكساح ، موضع رهبة الامهات وكان منتشرأ في أنحاء العالم خصوصاً مدن شمال أوربا الكبرى بحيث إكتظت بهم المستشفيات

فبعد دراسة عميقة قام بها الدكتور هولدنسكي تمكن من التغلب على هذه الآفة الاجتماعية



مكتبة المقتطف

شعوب وآداب في نظر أمين الريحاني (١)

كنت في الثانية عشرة من عمري عند ما سافرت المرة الأولى الى الولايات المتحدة . فلم أكن أعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والفرنسية . وما كان في ذهني من العرب وأخبارهم غير ما كانت تسمعه الأمهات في لبنان صغارهن : « هس جالبدوي ! » والبدوي والأعرابي واحد اذا رامت الأم « بيعا » تخوف به أولادها هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن أتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم . والبغض والخوف هما توأما الجهل

أما الأمة الفرنسية فما كنت أعرف من أمم الأرض سواها ، ولكنها معرفة مطوَّسة كانت المدارس تنشر أذنانها في لبنان : ان فرنسا لأعظم أمم الأرض ، هي أشرفها وأغناها وأرقاها . بل هي قطب المدينة ، وعاصمة النور والجمال — هي الطاووس بين الأمم كذلك كانت مدارسنا مثل أمهاتنا تسقين العلم في كأس النبوة إلا أن في كأس المدارس حلاوة زادتنا كرهاً « لبيع » الأمهات . هي كأس الجهل في الحالين ، الجهل الذي يولد الخوف والبغض ، والجهل الذي يولد الحب والإعجاب

أما أميركا فقد كنت في ما عرفته منها بعيداً عن الأم وعن المدرسة . تناولت الكأس من بد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه ومع ذلك فلم تخل مما امتازت به الكأسان الأوليان رشفت في نيويورك الجلام تلو الجلام من العلوم المشوبة وفيها أشياء من الجهل المتلائي وما يمازجه من الخوف والإعجاب

غدوت بعد عشر سنين في اميركا معجبةً بنشاط الشعب الاميركي وبحرّيته في الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن النكالب في سبيل الحياة الدنيا . وما كان خوفي

(١) ملخصة عن مقدمته لكتابه « ملوك العرب »

على الامة الاميركية وأنا في ذاك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتمت به ونقطة الدائرة في كل ماملت اليه . خفت أن أغلب في ذاك الجهاد ، أشفت على نفسي من ذاك التكالب ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وتردداً في مضمار الحياة صرفتني عن حقائق الوجود المادية وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المغنوية . صرت في نيويورك كثيراً يحمل كتاباً وغاويّاً من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سهلاً ، فانفتحت أمامي أبواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في أمور كثيرة ، اخلاقية وإجتماعية ، أرقى من الشعب الأميركي ، أحب الى من كان مثلي . فكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاتقياس والتأمر ، فلم أتخلق مثل سواي من السوريين هناك بأخلاق الأميركيين كلها ، والفضل في ذاك عليّ هو لفيلسوفهم الأكبر « إمرسون » الذي كان دليلي الأول الى محاسن الانكليزية في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم (١)

قد عرفني إمرسون الى كرليل ، وكان كرليل أول من عاد بي من البحار الى بلاد العرب أجل ، وقد يستغرب قولي إني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير سيّد العرب الأكبر النبي محمد (٢) فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت أميل الى الاستزادة من أخبارهم ثم في غزواتي للكاتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم ورافني الصور فيه . وما كان العنوان لينبئني بشيء أكره أو أحب . قرأت كتاب « ألالهبرا » (٣) فأدركت أن المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت أن الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الأندلس لله أنت أيتها البلاد العربية التي لم يشأ الله أن أجهلك حياتي كلها ، فبعثت إليّ ، وأنا بيد عنك ، انكليزياً يعرفني الى رسولك ، واميركياً يصف لي محاسن أبنائك

بعد أن قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الأميركية الافرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي ، فصرت أحلم بذلك المجد الماضي أحلاماً تمثلي حياً فيه بل تمثله حياً أمامي عدت الى بلادتي كثيراً يحمل كتاباً ، ويرغب في أن يكون الكتاب كتابين ومائة كتاب وكنت لا أعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون أن أدري لحالي . وبين أنا أتخبط في دياجني اللغة عثرت على كتاب شعر أنساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفاً من البصرة والكوفة

(١) English Traits by Ralph Waldo Emerson

(٢) « الابطال » توماس كرليل

(٣) The Alhambra by Washington Irving

جمعني الله سبحانه وتعالى بأبي العلاء المعري بعد أن هدايني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم قرأتها مترنحاً ورحت أفاخر بأني من الأمة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور الحكيم

*

أقاصيص هانس أندرس

٣٨٠ صفحة من القطع الكبير ، وهي العدد الثامن من مجموعة «عيون الادب الغربي» التي تتولى اخراجها لجنة التأليف والترجمة والنشر

يدأب الأستاذ محمود ابراهيم الدسوقي على نقل روائع الأدب الغربي الى العربية مسدياً بذلك إليها أجل يد ، فما أحوجها الى أمثال هذه الروائع . ولقد نقل عن الانكليزية هذه المجموعة التي تضم أربعاً وثلاثين أقصوصة للشاعر الدنمركي هانس كريستيان أندرسن من شعراء القرن التاسع عشر . كما نقل عن الألمانية رواية « الصراط » للشاعر الألماني هرمان سودرمان وسنكتب عنها في عدد تال . وذلك في أسلوب أخاذ له الى جانب رصانته رشاقة وخفة ظل المجموعة التي نقلها عن أندرسون هي من أجل وأروع القصص التي وضعت لتحرك الخيال الرائع في أذهان الأطفال ، وليس من يجهل أثر ذلك في تنشئة الطفل . وأعظم بهذا الأثر إن كان مصدره قصصاً موهوباً كمؤلف هذه القصص الذي كان « يلقي الزهرة فتوحي اليه ، ويلقي الصخرة فتلهمه ، ولم يجد في الحياة شيئاً غير حي » والذي أكسبته أمه « بأقاصيصها ما حرك خياله فلاحت له دنيا الخيال أعمر بالحقيقة من طاله الذي يعيش فيه » حين فقد أباه وترك وحيداً مع هذه الأم « فأكمل صباه في أحضان الدهر ، وقسا عليه الزمان فأشعره الرحمة التي تنبعث من أقاصيصه ، واستعرض في حياته شتى الأنماط ، فأجاد التشخيص في خرافاته . كان يحيش بالحياة فلم تعرف حياته جموداً ، ولم يتصور في شيء جماداً ، فجاءت أقاصيصه كلها صوراً حية من لحم ودم ، كلها معنى مجسم »

وهذه المجموعة التي ترجمها الاستاذ الدسوقي عن طبعة كولنز الانكليزية هي خير ما كتب هانس أندرسن ، وما استحق من أجله شهرته الواسعة ، وهي غذاء وممتعة لكل قارئ لأن ما فيها من عمق الفكرة ولطافة السرد وجمال التصوير يجعلها جديرة بالتمجيد والتقدير ، ومن حسن حظها ان أخرجت في العربية للناس في أحسن ثوب على يد مترجم بارع بليغ حسن كامل الصيرفي

مصر القديمة

تأليف سليم حسن — في جزئين مجموع صفحاتهما ألف صفحة — طبع بمطبعة كوتر بمصر

تبييننا كثيراً قبل الاقدام على مراجعة هذا السفر النفيس . لأن الموضوع واسع النطاق متعدد النواحي ، فلا يجوز لصاحب النظر العابرة أن يبدي رأياً فيه . ثم ان مؤلفه ثقة في موضوعه ، عالج دراسة وتدریساً وتقياً في مواطن الآثار نفسها ، فناقشة ما يبيده من رأي خاص من شأن العلماء المختصين أمثاله

ولكن هذا النهب لا يجب أن يحول دون تعريف القراء بكتاب ، هو على ما نعلم أتم كتاب كتب بالعربية في تاريخ مصر القديمة ، وشمل دراسة تاريخها من العصور السابقة للتاريخ المدوّن الى آخر العهد الأهناسي . والتاريخ كما تراه مبسوطاً في هذا الكتاب ليس صفحات متوالية من ملوك الأسر القديمة وأعمالهم وفتوحاتهم . بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا ان هذا النوع من التاريخ هو أقل صفحات هذا الكتاب عدداً وشأناً

والواقع أن المؤلف عني بنواحي الحياة في مصر القديمة ، وتطورها من جميع نواحيها ، نواحي المعيشة في البيت ، والأدوات المستعملة في البيت والحقل ، ومنزلة المرأة فيها ، وأساليب التجارة ، والادارة ، وتنظيم القضاء والحكم ، وربت الجيش ، وارتقاء الحياة العقلية والفنية وما يتبعها من طقوس وعبادات ، وعلم وشعر وتصوير ونحت

فنحن في هذا الكتاب امام لوحة كبيرة تضافت اساليب البحث التاريخي واستنطاق الآثار والكتابات على رسم صورها ، فاذا مصر القديمة في هذه اللوحة شعب وحياته لا تسلسلاً جامداً من الحوادث المتوالية . وقد حوى الكتاب فصلاً كثيرة تنطوي على آراء خاصة بالمؤلف في نواح من تاريخ مصر القديمة توصل اليها بعد معاناة البحث والدرس والتفتيش سنين طوالاً كانت حافلة بالمكتشفات الأثرية خطيرة الشأن

وقف المؤلف الجانب الأول من جزئه الأول على دراسة مصر قبل عهد التاريخ . وهو موضوع قلما طرق بالعربية قبل الآن . ومن المؤكد أنه لم يعالج معالجة وافية كما عولج في هذا الكتاب . و«علم مصر ما قبل التاريخ» لم يكن علماً معترفاً به بين علماء الآثار المصرية الى عهد غير بعيد والعالم ارسلان Arselin الفرنسي هو أول من أثبت وجوده بعد ما جاء مصر في سنة ١٨٦٨ وساح في وادي النيل وجمع من الأدلة ما مكنه من تأييد رأيه . ومن ثم جاراه وتبعه علماء كبار مثل دي مرجان وفلندرز بيري وغيرها . ويجب أن نخص بالذكر في العهد الأخير بحث المستر برنطون في الحيوانات التي قرب بلدة البداري . وبحث الأستاذ برشيا في كوم القناطر والأستاذ مصطفى عامر بك والأستاذ فتحي في المعادي بين القاهرة وحلوان

والحقبة السابقة للتاريخ تقسم ثلاثة عصور أولها يسمى العصر السابق للحجري القديم وقد استعملت فيه أحجار الطران كما وجدت في الطبيعة مع بعض التهذيب . وثانيها العصر الحجري القديم وهو عصر استعمال الحجر المهدب تهذيباً بسيطاً بعد القطع ومنه يتفرع العصر الحجري الحديث وهو عصر الحجر المصقول بعد التهذيب . وثالثها العصر الذي ظهر فيه استعمال المعادن وفي بدايته استعمال الحجر جنباً إلى جنب مع النحاس والحديد لصنع الآلات هذه العصور وأنواع الآلات التي استعملت فيها وأوصافها وأحوال سكانها في الحياة وبعد الممات خص بها الأستاذ سليم حسن ١٢٤ صفحة من كتابه تصلح أن تكون بحد ذاتها كتاباً مفيداً وقد كتب الأستاذ سليم فصلاً لعله لم يسبق إليها في رتب الجيش والقابله وكذلك في الألقاب القضائية وفي نظام الأوقاف وتقسيم الميراث . وما يستوقف النظر بوجه خاص صفحات عن منزلة المرأة وهو جزء من بحث ضاف في نظام الأسرة . وقد ذهب في أواخر هذا الفصل مذهباً خالف فيه علماء الآثار المصرية في نسبة الأولاد إلى الأم . فقال في صفحة ٥٥١ من الجزء الثاني « وعلى ذلك نكون من مائمين من الخطأ إذا عكست النتيجة التي وصل إليها علماء الآثار المصرية وقلنا أنه في عهد الدولة القديمة كانت تحفظ مكانة عظيمة للأب والأم اللذين كانا في أغلب الأحيان معروفين . هذا على أن الأب والجدة من جهة الأب كانا يذكران غالباً وحدهما ، ولم تذكر الأم وحدها إلا نادراً ... والجدة من جهة الأب لم تذكر إلا نادراً جداً ولكن لم نشاهد قط أن البنوة كانت تنسب لفرع الأم ... الخ »

وننقل في ما يلي فقرة واحدة عن الملاحه تدل على أسلوب الأستاذ سليم حسن الجامع بين الجزالة ودقة البحث التاريخي في كل ناحية من نواحي الحياة المصرية القديمة قال في الصفحة ٢٢٦ من الجزء الثاني

تدل النقوش حتى الآن على أن أول أسطول بحري عرف في تاريخ البشر يرجع عهده إلى الملك « سنفر » أول ملوك الأسرة الرابعة إذ يخبرنا حجر « بلرم » أنه في عصر هذا الملك قد عاد من بلاد سوريا أربعون سفينة محملة بخشب « عش » (الارز) . وفي مدى عامين — كما جاء على هذا الحجر نفسه — قد صنعت عدة سفن يبلغ طول كل منها نحو ١٠٠ ذراع من خشب الارز ومن خشب « مر » الذي كان يجلب من لبنان هذا عدداً ٦٠ سفينة أقل حجماً

وهذه السفن التي كانت تجري في البحر الأبيض المتوسط، نراها ممثلة على جدران معبد الملك « سحورع » والملك « وناس » من عهد الأسرة الخامسة . وقد كانت هذه السفن تشحن بالبحارة وممنهم فصيلة من الجنود لحماية البعثة من هجمات أهالي سورية ، أو لتكون مظهراً من مظاهر سلطة الفرعون ، وهذه السفن كانت تبنى على نموذج السفن النيلية غير أنها كانت أكبر حجماً وأثقل وزناً ، حتى يمكنها أن تقاوم هياج البحر من جهة وكذلك لتتحمل شحنة عظيمة من السلع من جهة أخرى

ومن كل ما سبق يتضح جلياً بطلان النظرية القديمة القائلة بأن الفينيقيين هم أول قوم مخروا عباب البحار وأن المصريين لم يبحروا على الملاحه إلا بعد الفينيقيين بزمن بعيد جداً . وينسبون ذلك إلى موقع فينيقية الجغرافي من جهة وإلى ثروة بلادها في الأخشاب الصالحة لبناء السفن من جهة أخرى مما جعلها سيدة التجارة على شواطئ البحر الأبيض

ومن يقرأ الكتب القديمة يعرف مقدار انتشار هذا الرأي الذي أثبتت الاكتشاف الحديثة بطلانه .
ومما قيل في هذا الصدد وثبت أنه خرافة : « ان هناك أسباباً تدعو المصري لعدم التوغل في البحر والتجارة
مع بلاد الشاطئ » ، منها : تكوين مصر الطبيعي ، والخوف من أهوال البحر ولصوصه . وتورط
كذلك بعض المؤرخين في القرن السالف فقال :

« لا بد ان الملاحة كانت تعتبر في حيز العدم في عهد الفترة الاولى من تاريخ مصر ، وذلك لان عزلة
أهلها عن باقي العالم قد منعتهم عن المعاصرة في عرض البحار ، وأنهم لم يقوموا بالملاحة الا في أواخر الاسرة
الثامنة عشرة » ثم قال : « والسبب الذي منع المصريين ان يكونوا ملاحين عظماء هو السبب الذي حال
دون عظمتهم التجارية . وفي الوقت الذي كان فيه الفينيقيون يقومون بكل أعمالهم التجارية بطريق البحر
مع جميع الدول كانت تجارة مصر محصورة في بلادها وجعلتهم تحت رحمة الاجانب الذين كانوا يقومون بالأعمال
التجارية الخارجية لهم »

وقد قالت قائل ذلك ان سكان وادي النيل منذ أقدم العهود قد وجدوا في نهرهم المنقطع القرين مدرساً
عظيماً يتعلمون على يديه أول درس في الملاحة عرف في تاريخ البشر ، فقد كانوا يعيشون طوال العام على
شاطئيه الخصيبين ، وكان فضائه السنوي يجبرهم على خوض الماء في كل وقت ، ولا يظن ان الملاحة في
النيل كانت دائماً سهلة لا يعثرها أي خطر ، بل كانت في مدة الفيضان وهبوب الرياح تخفها مخاطر جمة ،
ولم يكن المصري بالشخص الذي يخاف هذه المخاطر ويحجم عن اقتحامها اذ كان النيل أهم طريق المواصلات
وقد كان لديه العدة لاقتحام أهوال هذا النهر بما صنعه من السفن المثينة التي أخذ في تحسينها على مر الزمن
حتى جعلها صالحة لتختر عباب البحر نفسه . على ان الملاحة في البحار كانت ساحلية على وجه عام يقوم بها
الملاحون في أحسن فصول السنة الملائمة عندما يكون الجو هادئاً والرياح رخاء بالقرب من الشاطئ كما سفتكم
عن ذلك في حينه

وقد ذكرنا فيما سبق انه كان يوجد في مصر موانئ زاهرة غنية على شاطئ الدلتا منذ عصر ما قبل
الامرات كدبنة متليس (قوة) التي رملها بالخطاف والقارب على لوحة « نمر » ، وكانت أساطيل هذه
المدن تقوم برحلات تجارية مع السواحل السورية

على أننا من جهة أخرى لا ننكر ان الفينيقيين كانوا يتجرون مع جزء من البحر الابيض المتوسط قبل
ذلك العهد ولكننا ننكر أنهم أساتذة المصريين في تعلم فن الملاحة الذي تفوق هؤلاء فيه ، ولدينا براهين
ساطعة تدل على أسبقيتهم للأمم الأخرى بمدة قرون . منها المدت المذكورة قبل ان يكون للفينيقيين شأن
في عالم الملاحة البحرية

اذ الواقع أنهم لم يظهروا في هذا الافق الا في النصف الاول من الالف الثانية قبل الميلاد ، هذا الى
ان سفنهم قد بنيت على الطراز المصري

وعلى ذلك تكون النظرية القائلة بأن سفن « سفرو » و « سحورع » كانت فينيقية لا أساس لها من
الصحة . يضاف الى ذلك ان تمثيل السفن البحرية في معبد « سحورع » الجنازي يشعر بأصل مصري .
وقد لاحظ البعض ان اسم السفينة « كبت » نسبة الى « كبن » (بيلوس بالصرية) . ورأوا في هذا ان
أصل صنع السفينة كانت في هذه الجهة ، ولكن لا يلزمنا ان نستنتج من هذا ان أهالي النيل قد تعلموا فن
بناء سفنهم والملاحة من بيلوس . اذ الواقع ان لفظة « كبت » تفسر بوضوح ان أول سفن بحافة عالية
كانت تلك التي سافرت الى بيلوس او ان هذه السفن قد صنعت من خشب لبنان الذي كان يشحن من شاطئ
بيلوس . ومما يميز ذلك ان السفن التي كانت تمخر عباب البحر الاحمر الى (بنت) في عهد « بيبي الثاني »
وما بعده كانت تسمى كذلك كبت

وعلى أية حال فهناك حقيقة لا مرء فيها وهي ان المصريين منذ فجر تاريخهم بل منذ عصر ما قبل التاريخ
كانوا يسبحون في البحر . وان البعث التي كانوا يقومون بها في عهد الدولة القديمة ما هي الا استمرار
لتجاراتهم الخارجية التي كانوا يقومون بها من موانئ النيل في عصر ما قبل التاريخ ، يضاف الى ذلك ان
نشاطهم البحري هذا كان نتيجة التجارب التي كانوا يقومون بها في نيلهم وما قاموا به من بناء السفن مما
جعلهم ليسوا في حاجة الى ان يتعلموا من الخارج فن الملاحة

أحاديث العلوم المبسطة

المجموعة الاولى — لطائفة من أساتذة كلية العلوم بجامعة فؤاد الاول — أذيعت من المحطة
الاسلامية للحكومة المصرية — صفحاتها ٢٠٦ قطع المقتطف

خير ما تقدم به هذه المجموعة النفيسة من الفصول في العلوم المبسطة هو قول الدكتور مشرفة بك عميد كلية العلوم في الحديث الأول قال : — لقد صارت العلوم في عصرنا الحالي ضرورة من ضرورات الحياة فهي لازمة للدفاع القومي ، لازمة لاستغلال الموارد الطبيعية في كل أمة ، لازمة للمحافظة على صحة الشعب ولتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية بل هي لازمة لحياة الفرد العادية لا يكاد يستغني عنها في عمل من أعماله اليومية . وإذا كان هذا شأن العلوم وكان هذا خطرها فإذا نحن قاعلون من أجلها ، بل ماذا أعددنا لأنفسنا من العدة العلمية وسط هذا الجوّ الدولي المكهرّ وبين هذه الأمم المتحفزة . ان نظرة منا الى أنفسنا كفيلة بان تدلنا على مبلغ تقصيرنا كما أنها كافية في الوقت ذاته لمعرفة الاتجاه الذي يجب ان نوجه فيه مجهودنا »

وبعد ما وصف العناية بإنشاء المعاهد والهيئات العلمية في مصر والفائدة العملية التي تحظى من البحوث العلمية قال : — ليست العلوم مجرد حقائق يكشف عنها ونظريات تصاغ وتمحص وليس العالم دائرة معارف متحركة أو قاموساً علمياً ناطقاً بل ان العلم طريقة خاصة في التفكير والعمل العلم عقلية خاصة تقتزن بالعالم وتلزم له . هذه العقلية العلمية تعوزنا اليوم في معالجة كثير من أمورنا . وليس من الصعب أن نصف هذه العقلية أو أن نذكر مميزاتها . وانما الصعوبة في اكتسابها والدرج عليها . فالعقلية العلمية تتميز بشيئين أساسيين الخبرة المباشرة والتفكير المنطقي الصحيح . فالعالم لا يبني الا على نتائج التجربة المباشرة كما انه لا يسلم بما يتعارض والتفكير الصحيح . وهذان أمران يظهران في منتهى البساطة ولكن الأخذ بهما يحتاج الى الكثير من المراتة . وان من الاغراض التي نرمي اليها من اذاعة هذه الأحاديث ان تشيع العقلية العلمية بيننا وان تصبح عادة في تفكيرنا القومي

وقبل هذا وصف الدكتور مشرفة ما لتبسيط العلوم من منزلة وشأن في هذا العصر إذ قال « هذا الاتصال — أي التبسيط في أحاديث العلوم بلغة سهلة خالية على قدر ما يتيسر من المصطلحات الغريبة والرموز المربكة — بين معاهد العلم وبين الجمهور يؤدي الى تفاهم وتعاون يعودان بالخير على المجتمع ، وبدون هذا الاتصال يتحول العلم الى ضرب من ضروب السحر ويؤول العلماء الى نوع من السكينة الذين نقرأ عنهم في تاريخ مصر القديم

والحق يقال أن هذه المجموعة من « الأحاديث » تحقق الغرض منها على أوفى وجه . فهي علمية في موضوعها وفي العقلية المسيطرة عليها ، مبسطة تبسيطاً تسهّل العامة وترضى عنه الخاصة ،

منوعة شائقة تتفاوت من الكون الى الذرة ، ومن الانسان الى الحشرات ، ومنها ما هو عام شائع في جميع البلدان ومنها ما هو خاص بمصر . وجميع اصحابها ممن توفروا على الموضوعات التي تحدثوا فيها فحقائق الفصول مأخوذة من أبناء بجدتها ومن بناتها أيضاً لأن بين المتحدثين الانسة سميرة موسى علي وموضوعها « على هامش النسبية »

ولولم تشارك الانسة سميرة في هذه الأحاديث ممثلة الفتاة المصرية المقبلة على العلوم الحديثة لعبتنا على من تولى تنظيمها من رجال كلية العلوم لأننا رأينا في زيارة غير بعيدة لهذه الكلية الفتاة المصرية جنباً الى جنب مع اخوانها تشارك في جميع فروع العلوم علماً وعملاً واخيراً انتهى المحطة اللاسلكية للحكومة المصرية بهذا الجانب العلمي من برنامجها الثقافي . ونؤكد لها ان ما يذاع من محطات العالم الكبرى لا يفوق هذه الأحاديث دسماً وبياناً ، وزجوا ألاّ تسمح لأحوال الحرب بصرف النظر عنها

*

مجلة « الحديث » والمرحوم اسماعيل أدهم

رحم الله أخي أدهم وغفر له ، لقد كان وفيّاً كل الوفاء ، وهكذا قدر له ان تجد ذكراه على وفائه جزاء من صديقه الاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة « الحديث » الغراء التي تصدر في حلب . فما أجمل هذا الوفاء !

لم يكد خبر انتحار الدكتور اسماعيل احمد أدهم يصل الى مسامع الاستاذ الكيالي حتى أعدّ عدته لإصدار عدد خاص بالفقيد العزيز فكتب الى أصدقائه في الأقطار العربية يناشدهم المؤازرة في هذا الواجب الكريم . فلي ندأه فريق من فضلاء العربية وفضلياتها تناولوا حياة الفقيد وآثاره بالدرس فكان له هذا العدد الخاص الذي صدر في تسعين صفحة ختاماً للسنة الرابعة عشرة من حياة هذه المجلة الغراء فحاء حافلاً بالبحوث الشائقة والدراسات الممتعة من كتاب لهم مكاتبتهم الأدبية في مقدمتهم محرر المجلة والأساتذة صديق شديوب والدكتور علي الناصر ومحمد روجي فيصل ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ومحمد عبد الغني حسن والكاتبان المبدعان السيدة وداد سكاكيني والانسة فلك طرزي وعبد الحفيظ نصار وفؤاد الشايب وبشر فنصه وأخوه الفقيد ابراهيم أدهم وذلك الى جانب المدامع الحارة التي سكبها الشعراء ومنهم الشعاران الفنانان الاستاذان عمر أبو ريشة وزكي المحاسني والشاعر المبدع شارل خوري

ولقد كان من سوء حظ كاتب هذه السكلمة ان وصلت دراسته التي وضعها عن صديقه ادهم حين أعدّ العدد او صدر بالفعل بسبب اضطراب المواصلات الآن فلم يشترك في هذا الواجب الأبرتيته الشعرية . رحم الله « أدهم » وجزي الله « سامي » عن هذا الوفاء خير الجزاء حسن كامل الصيرفي

ديوان الشيبني

السيد محمد رضا الشيبني شاعر عراقي مبدع ذاعت شهرته في الاقطار العربية من قبل الحرب الأوربية العامة السابقة وظلت شهرته تتسع وتنتشر مع الاجلال والاحترام لما يتصف به شعره من دياجة متينة وقوة عارضة ولما يتوخاه من اذاعة الوطنية والفضيلة ونشر المسكارم فيه وعنت جمعية الرابطة العلمية الأدبية بالنجف بنشر ديوان هذا الشاعر الفاضل وطبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة طبعاً متقناً على ورق جيد وجلد تجليداً نفماً فجاء في حلة قشبية تليق بمقام صاحبه وما حواه من شعر قوي . ولقد نوهت محطة لندن بالديوان عند الشروع في طبعه . والديوان مقسم الى أبواب الحماسة والحكميات والاجتماعيات والخلقيات والاسميات والوجدانيات والوصفيات والرثاء والمنفرقات وقد نيفت صفحاته على مائتي صفحة بالقطع الكبير ومن بديع شعره في رثاء الاستاذ الجبوني بطل النهضة العراقية المتوفي سنة ١٩١٥ قوله : —

قدت القبائل بالامامة فيهم فمن الامامة في يدك زمام
شافقهم بالدر وهو مباسم واخذتهم بالسحر وهو كلام
كلم بها وبمعجزات مثلها بحلى العقول وتصلق الافهام
أصلحت شأنهم وكانوا عصبه لا الدين يحجزهم ولا الارحام
أيد يؤئلن الثناء وأنعم لك في رقاب المسلمين جسام
وله في ذكرى أبي الطيب المتنبي قوله : —

يا موسم الأدب الجميل رسالة لدويك يحملها البريد الوافد
عودوا الى الماضي فان عدتم له مستلهمين فثم مجد عائد
للبذرة الاولى يد محمود لا تجحدوها فالشقي الجاحد
والكون مزدور فخيّل حارث فاته بغيته وجيل حاصد
اعباء (احمد) للهوض علائم وعلى الحياة أدلة وشواهد

ومن بليغ قوله : —

ومشرع ضم لست أَرْضاه مورداً ومرتع ذل لست أقبله مرعى
وأشقى الورى من يطلب السعي للعلا ويمنع صوت الجهالة أن يسعى
إذا رام أن يستشرف الأفق طائراً هوى صاغراً أو رام أن يستوي أقمى

وشعر الديوان على هذا الفرار ومن النسخة منه ٢٥ قرشاً فنوجه اليه الأنظار (م.ر)

المهندس الصغير

تأليف محمد عاطف البرقوقي — ١٢٨ صديحة مزدانة بالصور

ان الغرض من هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير القيمة ، تيسير فهم مخترعات النقل البري وما يتصل به من هندسة الطرق وتاريخ البريد ومنافسة السيارات للقاطرات . فقد تعددت مخترعات النقل وتنوعت ، وبعد أن كانت قاصرة على الدواب والعربات في البر تخطتها الى السيارات والقاطرات وغيرها ، وأصبح لكل منها أنواع متعددة ، فمنها ما يسير بالبخار ومنها ما يسير بالبنزين أو الزيت أو الوسخ أو الكهرباء وصارت هذه المخترعات ألزم للانسان من ساقيه فهي من أجدرها بالمعرفة

والكتاب موجه خاصة الى الصغار . ولكن الكبار غير المختصين يجدون فائدة كبيرة فيه وإذا كان طلبة التعليم الابتدائي والثانوي والعالي لا يمسون هذا الموضوع في دراستهم فان ذلك يجب ألا يمنعهم عن بعد التخرج

والكتاب مماشٍ للندرج التاريخي في إرتقاء وسائل النقل . ففصله الأول يعالج الانسان والحيوان من نواحي السير على الأقدام وحمل الأثقال ونقلها . وفي الفصل الثاني العربات من عهد القدماء المصريين الى القرن العشرين وهو يحتوي على وصف الأنماط المختلفة التي استعملت خلال العصور وصورها . وفي الفصل الثالث السكك الحديد والقاطرات وقد وطأ له بكلمة عن البخار والمحرك البخاري . ثم نجد فصلين موجزين في ترجمة من كان لهما أكبر الفضل في إنشاء السكك الحديد وهما تريفثيك وستيفنسن . وفي آخر الفصل كلمة عن دينزل وقاطراته . وعلى الطريقة نفسها عالج موضوع السيارات . ثم انشاء الطرق وتاريخ البريد

والاستاذ محمد عاطف البرقوقي من خير من يتولى مهمة اضافة مثل هذه الكتب النفيسة الى مكتبة الصغار باللغة العربية . « فاعلمية العلمية » التي يدعو اليها الدكتور مشرفة وبجاريه في الدعوة اليها كل من ادرك منزلة العلم الحديث في بناء الحضارة ، لا نستطيع أن نحققها إلا اذا نشأ صغارنا وبين ايديهم ما يمكنهم من فهم هذه العجائب الميكانيكية التي تحيط بهم . وتربية الطفل لا تتم مهما نصنع من البرامج ونفق من الأموال إلا اذا عمرت المكتبة العربية بكتب وضعت خاصة للصغار في الأدب والقصص والتاريخ ومبادئ العلوم والمخترعات . ولذلك رحب « بالمهندس الصغير » أعظم ترحيب ، وننتظر « البحار الصغير » بفارغ صبر

وإذا نحن خصصنا الاستاذ البرقوقي بالثناء على ما يبذله من جهد في تقريب عناصر الحضارة الآلية الى اذنها تصافاراً وكباراً فيجب كذلك ان نظري مكتبة المعارف ومطبعها لأنها أخرجت هذا الكتاب كما يجب ان يخرج متقن الطبع كثير الصور يغري بالمطالعة

فهرس الجزء الخامس

من المجلد السابع والتسعين

لماذا نحارب ؟ بحث نفسي مقابل	٤٥٣
جائزتا نوبل في الكيمياء عن سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩	٤٦٠
أسباب الانتحار بحث علمي احصائي	٤٦٢
لماذا تحبني (قصيدة)	٤٦٨
شعر البارودي — حياته وصورة عصره : لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا	٤٦٩
تنسيق الاصلاح الاجتماعي في مصر : لسعادة محمد العشماوي بك	٤٧٧
الطب المصري بين عهدين : لمعالي الدكتور علي ابراهيم باشا	٤٨٥
فضل العرب فيما أدخلوه من النبات وأساليب الزراعة : لمحمود مصطفى الدمياطي	٤٩٠
رابطة اسكنينا (قصيدة) : لخليل مطران	٤٩٢
فن التغمية في الحرب وأساليبها في الطبيعة : لعوض جندي	٤٩٤
الأدب الفرويدي : للدكتور ابراهيم ناجي	٥٠١
نظام ديوان الاستخبار في الهند في عهد المسامين : للسيد أبو النصر احمد الحسيني الهندي	٥٠٦
رحلة في الفضاء من الأرض الى المريخ	٥٠٩
سير الزمان * غزوة بريطانيا — ثلاثة مشاهد تاريخية . نفيل تشمبرلن ١٨٦٩-١٩٤٠	٥١٣
الحس العملي في الخلق الانكليزي : للسر مايلز لامبسون السفير البريطاني	٥٢٥
حديقة المقتطف * البستاني للشاعر الفيلسوف طاغور : نقلها محمود كامل حبيب	٥٢٥
المراسلة والمناظرة * شجرة البانان وفصيلة التين : لمحمود مصطفى الدمياطي	٥٢٢

فاب الاخبار العلمية * العلم والحرب . طائرات الاسطول وعملها . حاملات الطائرات . طائرات الاسطول واصافها . اتجاهات الحرب الجوية . الحاجة الى البحث العلمي . الغارات الليلية ومغزاهها . طائرات بمينة المدى . فيتامين ب ١ وجدران اوعية الدم . اعلى المرصد لرصد الشمس . الارانب أقدم الثدييات الاميركية . الحرية وعلم الحياة . السكر ونشاط النحل . القلاع الطائفة . علاج داء الصرع . ما في الملح من تناقض . تجديد انتخاب روزفلت . الذهب في مصر القديمة . وفيات الاعلام . وفاة العالم هولدنسكي في الاسكندرية	٥٤٣
مكتبة المقتطف * شعوب وآداب في نظر امين الريحاني . أقاصيص هانس اندرسن . مصر القديمة . أحاديث العلوم المبسطة . مجلة الحديث واسماعيل احمد أدهم . ديوان الشبيبي . المهندس الصغير	٥٥٤